روايات الهلال

ابراهيم الناصر الحميدان



الغجرية والثعبان

الغجرية والثعبان

بقلم

ابراهيم الناصر الحميدان

دار الهلال

الغلاف للفنانة:

سميحة حسنين

(١)

يتمدد على السرير.. ينصت إلى دقات قلبه ثم يسرح به الخيال ليتذكر تلك الليلة المتلحفة بأربع سنوات مضت.. تدثرت بها ولكن سرعان مانفضتها بغمضة عين.. كانوا قد توقفوا فى عمق الصحراء متجاوزين منتصف الطريق ما بين الدمام والرياض.

عامر بندر وسلطان حين أعلن سلطان بصوت ينم عن الخجل.. يا صديقى .. العربة تحتاج إلى الراحة.. فما رأيك؟ .

رد ضاحكا.. ونحن ايضا نحتاج إلى أن نمدد اقدامنا بعد هذه الساعات الطويلة من السجن داخل عربتك الكريمة. تضاحك الآخر.. اذن انت معى فى أن الوقت مناسب للراحة.. قال ذلك وهو يقود العربة إلى خارج نطاق المسار مخفضا السرعة.. واضاف :– أرتاح للذين لايحبون المعارضة.

سلطان فى الثامنة والعشرين من العمر .. قصير القامة، حاد الذكاء، اسمر اللون يضع نظارة طبية ملونة على عينيه، مستدير الوجه ، حليق الشارب والذقن.. عمل لفترة طويلة كموظف أهلى ثم استقال ليتفرغ للعمل الحر. انفه قصير .. متعاطف مع الطبقة العاملة. رست عليه عملية تمديدات كهربائية فى قرية قريبة من مدينة الرياض، فتشارك مع آخر قروى لتموين العملية.

قال عامر وهو يطوح يديه فى الهواء بارتياح:– ما أبدع من مرأى الغسق فى برارينا الجرداء – فعلق سلطان وهو ينظر بعيدا:– وما احلى شرب الشاى فى هذا الجو المشحون بالعاطفة والتعاطف.. سوف أذهب إلى الجوار لأحضر بعض الماء البارد.. قال ذلك ومضى حاملا معه (مطارة الماء) يتمهل فى سيره.. نسينا تعبئتها لأن كل واحد منا اعتمد على الآخر.. بينما انشغل عامر فى البحث عن وعاء الشاى داخل السيارة متمتما:– عسى الا نكون نسينا وعاء الشاى فارغا أيضا.. فجاءه صوت سلطان من بعيد :

لا تخف .. ملأته بنفسي لأنني لا استغني عن شرب الشاى مع السيجارة.. وحين وضع أواني الشاى حول الوعاء اخذ ينظر إلى فنجان الشاى بتمعن ربما ليتأكد من نظافته حيث أدناه كثيرا من عينيه.. وسمع سلطان يعود راكضا.. تصور .. إن الجالسين بقربنا اختفوا مع النار التى كانوا يجلسو حولها.. فضحك عامر ليجيب بلهجة الواثق :- انه السراب يا صديقى الذى يظنه العطشان ماء .. رد الاخر:- ولكن النار ليست مثل السراب يا محترم .. الجو لايخلو من الرطوبة ونحن لسنا بعيدين عن البحر. فتساءل سلطان بنفاد صبر افصح يا اخى .. فقد احترت معك.. قال عامر :- اجلس واستمع إلى تفسير اصحاب الخبرة.. فأنت تعرف بأن ابى من رواد الصحراء .. وقد اخبرنى بأن الصحراء القريبة من البحر تعج بإخواننا الجن.

وهم فى الليالى المقمرة يفضلون الخروج من مكمنهم والجلوس فى الهواء الطلق .. ومن عاداتهم ايضا أن يوقدوا النيران لتكتمل متعتهم.. انظر إلى المشاعل واشار بيده.. سوف يمتلئ البر بها ولكن عليك ان تقرأ بعض الآيات القرآنية (وضحك مواصلا) حتى لا تخطفك واحدة منهن لانهن يعشقن الانس فى بعض الاحيان.

فقال سلطان وهو يلملم أوانى الشاى:- هيا لنذهب .. فلست أطيق مثل هذا الحديث الخرافي. فعلق عامر :- ولكنهم مسلمون مثلنا.. فرد سلطان بجفاء مسلمون مثلك انت وليس مثلي .. فالطبقة العاملة هي التى سوف تسود العالم كما يقولون . فاستثاره عامر :- ومع ذلك فأنت تريد ان تصبح رأسماليا . كلا .. انما اريد ان لا احتاج الى لصوص المال فقط .. فالحر من لا يخضع ويبقى مترفعا. بدا لهما ان المكان اصبح موحشا رغم ان العربات الصغيرة كانت تمرق مسرعة بينما محركات الشاحنات الضخمة تئن بذلك الصوت الذى يوحي بالمعاناة ومشقة الاثقال التى تحملها .. وارواح الجان مزروعة وهي توقد المشاعل فى تلك البرارى الشاسعة وتخدع أو تحذر الانسان من طول الاقامة فى مسرحها الخاص والذى لايعترف بحدود المكان.

وفجأة شاهدا شعلة تنزرع بالقرب منهما فتململ سلطان معلنا: ألاترى ان العربة معرضة فى هذه اللحظة للاشتعال؟ اجاب عامر بصوت مطمئن :- لا اعتقد.. فهذه الارواح التى تحيط بنا لم تظهر المعاداة والشر والشعلة لن تبتعد عن مكان إيقادها فهي وهمية . فتضاحك سلطان بصورة بدت هستيرية: لا ادرى من اين لك هذا التفاؤل .. فهل انت على علاقة من نوع ما بهم؟ رد بسرعة .. لا تطمئن إلى هدوئى .. بدليل اننى ارتعد هلعا فى منتصف الليل حين استيقظ من نومى واشعر بسكون المكان والجميع نيام.. فلا اجد العزاء سوى ما احفظه من الآيات القرآنية.. أتلوها وأنا مغمض العينين.. وساد سكون مريب متشح بأردية الخوف والتوجس . اصبحا يتحدثان بهمس لا يخلو من طلاقة اللسان بعد ان تأكدا انهما اسرى هذه الاجواء الروحانية فى رحاب الجان الذين لايرتاحون كما يقال إلى الالغاز وانما فى الافصاح.

كان الصخب من حولهما ينسيهما انهما فى عالم مختلف .. ومهما حاولا التقاط ما تعنيه النبرات المبهمة فلن يفهما ما تعنيه قط لان الصوت لا يتشكل فى مخارج الكلمات انما تذروه الرياح مثل خفقة هواء مداهمة يشنها تيار شارد .. وكان سلطان يشير بين الحين والآخر إلى قبة الشعلة المتوهجة بينما هما ينتزعان من المائدة الارضية التى امامهما بعض بقايا الطعام الذى جلباه يتوسطهما وكأنما يتوسل إلى ايجاد وسيلة يبعدها عن عربته القديمة من نوع مرسيدس التى يتمسك بها رغم ان لونها يكاد ان يمحى بعد ان تجدد موديلها عدة مرات. فقال عامر ليبدد تجهم وجه رفيقه فى الرحلة : ألا تنوى تغيير هذه العربة وإهداءها إلى متحف .. فلمعت اسنانه فى ضحكة شبه تكشيرة ليقول:- حاليا احتاج إلى كل قرش الا اذا كان لديك قرض تسعفنى به. كان قد تجاهل ان زميله عاطل عن العمل منذ بضعة اشهر وقد حاول هو ان يتوسط له ولكنه فشل لان الشهادات الدراسية واللغة الأجنبية حالت دون الحصول على وظيفة .. فعلق مازحا:- إذا شغلتنى فى مشروعك فسوف لن اتردد فى دعمك ماديا.. فصدرت عن الآخر ضحكة مجلجلة لا تتناسب وحساسية الموقف ، ثم كف عن الضحك فجأة واخذ

يتلفت حوله وكأنما يعتذر وتمتم:- اعتبر نفسك اشتغلت معى وعليك منذ الآن طاعتى.. فرد عامر :- لقد تحدد مصيرنا معا منذ بارحنا مدينة الدمام بسواحلها ذات الرائحة النتنة.. ام انك نسيت الكوخ الذى كنت تسكنه . فتأوه الآخر وهو يقف فى حركة مفاجئة ليقذف بما لملمه من المائدة فى صندوق العربة الخلفى قائلا:- الروائح النتنة تنبعث من اماكن كثيرة وليس فى اطراف السواحل فقط حيث الاسماك والديدان والاجساد الميتة التى تشربتها تلك السواحل ذات المياه اللزجة . انما فى هذه اللحظة الحرجة اتدرى ماذا يخطر بذهنى ؟ اضاف بعد ان اصدر نشيجا خافتا تلك الشقراء ذات القامة الطويلة فى مكتب نائب رئيس الشركة.. احب عينيها الزرقاوين وفمها الصغير ذا الشفتين الرقيقتين ذات اللون الرمانى.

قال عامر:- ماذا تفعل ؟ رد باقتضاب سوف نرحل .. هيا استعد.

صفق طائر ضخم بجناحيه فى الافق . فعلق عامر:- انظر .. انه البشير. مضى نحو النار المشتعلة قريبا من عربته وادخل يديه بين ألسنتها وهو يبتسم.. اصبح متفائلا باندفاع.. فلاحظ عامر بأن اية عقبة سوف تحطم قلبه فقال بنبرة حنان طاغية:- ارجو ان لا تندفع مع سراب الآمال.. فالاحتياط واجب.. كان يبدو سعيدا إلى أبعد الحدود .. تقطر البسمة من بين شفتيه عسلا .. انه الحب الذى تكسرت الرماح دون بلوغه.. ذلك الاحساس النقى .. الشفاف البرئ .. ينبع بطواعية مثل انبثاق الماء من باطن الارض.. لايسأل مدحا ولا شكورا .. عطاء فطرى .. وبسرعة قفز سلطان راكضا وهو يعود قائلا:- وهو يمسح عينيه هل تصدق.. لقد رأيته. نظر اليه بتساؤل:- من تعنى ؟ صرخ مبتسما :- ابى .. كان بين هؤلاء القوم ! بانت الدهشة على وجه عامر فتساءل:- أكان ابوك مقاتلا .. ومات فى معركة؟ .

رد بصوت خافت :- لا اتذكر .. فقد سمعتهم يبكون لفقدانه .. قد يكون شبيها له.

بدت ظلال الاشباح مستطيلة تحت القبة المضيئة بنور القمر الذهبى وان تضاءل فى المسافات حتى لا يكاد يبين منها سوى ضلع واحد نحيف يقفز فوق

المرتفعات بين جذور المزروعات ، التى تخشبت واصبحت مثل سيقان الصبار ذات الانياب الشوكية الحادة حيث لا يمكن حتى لملك الوحوش ان يقيم فى هذه الاماكن التى لا تحميه فيها جبال شاهقة واشجار كبيرة ، كما ان دمدمة الشاحنات سوف تقلق نومه فلايستطيع التفكير فى شئون رعيته النيام طوال السنة بين السواقى التى لا تخلو من الماء الملوث ببعض الروث..

لم يكن سلطان يتوقف عن تفقد عربته القديمة التى كان يخشى ان تبتلع شرارة من ذلك الخيط النارى الخفيف الذى تحركه رياح خفيفة فلا تجعله حتى يستدير أو يتلوى كما يشاء ، وانفتح فمه فجأة عن صوت لايعرف الموسيقى مطلقا اذ كان أجش لا نفحة فيه.

– هيا نمضى .. امامنا طريق طويل

فتأوه الاخر بعناد:– كيف اذهب واترك ابى مع هؤلاء .

– لا تخف سوف يلحقون بنا .. طالما يريدون التخلص من الاسرى.

كان شاحب الوجه .. عيناه تبرقان من شدة الانفعال.

(٢)

لاحت امامـهمـا صـحـراء الدهناء.. غزيرة الرمـال ذات خطوط ذهبيـة عميـقة تتوسدها كثبان رملية متباينة الارتفاع والاحجام ، كانت ذات قرن تعج بالفرسان وهم يتناوشـون بالسـهام قبل ان تلتـحم السيـوف وتتـسـاقط البيـارق فى حـمى المعارك، وسنابك الخيل تصـدر تلك الاصـوات النحـاسيـة التى تسـتثيـر الاسنان وتجعلها تحتك سريعة قوية فيما كان الفرسـان يتساقطون جرحى أو بفعل تعثر الجياد فى نتوءات الرمال ، التى تجد ملجأ لها حول هياكل الحيوانات التى نفقت منذ عشـرات السنين فتـبخـر الماء منها ورائحتـهـا، ولم يبق سـوى هذه العظام الكلسية التى لا نفع فيها سوى ان تتكوم لتصبح عيدانا تضطجع فى برك مياه الامطار السريعة التبـخر ، حين تحـمى حرارة الشمس للارض التى تحتـها كما تنفع الطيور الهائمة حتى تتبرد فوقها من الحرارة اللاهبة وانفاسها تتصاعد وهى تلهث بينما نظراتها تستدير فى كل الاتجاهات ، وخاصة الحفر العميقة التى لا تخلو من الأفاعى السامة التى تتغذى من تلك الحيوانات النافقة فلا تترك منها حتى العظام اللينة قبل ان تتكلس فتزدردها حماية لأجوافها من الجوع ، بينما زواحف مثل الضب والورر والعقارب والفئران البرية سريعة الحركة لابدة بين تلك الهياكل لتحتمى بها وصغارها من هجمة الأفاعى الشرسة. فاذا صرخ طير فوق تلك الوهاد الرملية تبسمت الحيـوانات على أمل ان يهوى ذلك الطائر من الاعياء والتعب فتسرع نحوه وتتجمع حول جثته فى حماية امهاتها لتكون وليمة لا تحدث كثيرا فى تلك البرارى المقفرة.

على ان رائحـة حقل خريص البتـرولى ينشـر روائح كريهـة تتنشـقـهـا تلك الحيوانات المسكينة ولا تعلم انها تتنفس مـواد كيمـاوية ملوثة سـوف تعمل على قتلها بالتدريج فى غياب هيئات حماية البيئة التى يتوقف نشاطها داخل المدن .

وتتناسى الصحارى التى تعج بحيوات الحيوانات المختلفة واهمها الطيور وضحايا اخرى يقتلها الانسان عن عمد يوميا حتى تزدهر صناعة السلاح.. وهناك من يعتقد بأن هذه الصحارى كانت ذات يوم منذ آلاف السنين ارضا خصبة تشقها الانهار ويعيش حولها الانسان بأغنامه وحيواناته الاليفة بدليل ان ثمة الكثير من الواحات تتناثر هنا وهناك ، وهى بقايا تلك الحياة القديمة التى شهدتها هذه الارض ثم حدثت تقلبات جيولوجية مثل البراكين والسيول فاكتسحت ما صادفها واهلكت الحياة وابقتها جرداء تتوهج فيها حرارة الشمس اللاهبة على عمود قائم. وكاد الاستشراق ان يواصل اكتشاف هذه الحقائق لولا انه اهتم باستغلال ما فى باطن الارض من ثروات نفطية ومعدنية.

كانت الطيور احيانا تحلق على ارتفاع منخفض وهى تجوس الارض بعيونها الصقرية ، فاذا اكتشفت دابة تتحرك تحت ظلال اشجار العسجد تنقض عليها وتخطفها بمنقارها بعيدا فى الاعالى مثل ما تفعل طيور النورس حين تشاهد اسماكا تنط فوق الماء حيث تعكف على تجريدها من سلاحها ثم تقصصها قبل ان تزدردها. وحين تعطش هذه الطيور تتشمم رائحة الماء فى السواقى الناتئة داخل الواحات المتناثرة فتمضى نحوها وقد تبنى اعشاشا اذا ما تزاوجت.. اما الضعيف من تلك الطيور فيسقط من حالق لتقيم الزواحف المختبئة فى الجحور وليمة على شرف قدومه إلى وكرهم. على ان هذه الطيور وجدت لاحقا فى محطات ضخ البترول مكانا أكثر امانا من الواحات اذ مكثت فوق اسطح الخزانات الكبيرة العالية ذات التبريد الجيد والمياه الوفيرة كى تغتسل ايضا كما وجدت فى بعض اطعمة العمال ومخلفاتهم ما يغنيها عن البحث فى تلك الصحراء اللاهبة عن طعام يسد رمقها . ورغم ان الطيور تهاجم هذه الحيوانات الشقية فانها مازالت تعيش فى الصحارى وكأنما هى تتناسل مثل بيض الصراصير الذى يعيش فى اسوأ ظروف الحياة مكروهة من الجميع فمنظرها يبعث التقزز أسوة بالفئران النتنة ذات الشوارب الطويلة.

حقا لقد استمتعوا وهم فى نهاية الرحلة بتلك الاجتماعات الغفيرة من حملة المشاعل وهم يوقدون حبات القهوة المحموسة فى الدلال حتى تفيض من قوة النيران والمواقد الكبيرة ؛ فتسرع الايدى الخفية إلى ابعاد الدلال النحاسية قليلا عن اللهب المزرق مثل البراكين فى السابق.

ولاشك انها كانت ليلة رائعة لان الرقص فيها استمر حتى الصباح وهو نادرا ما يحدث فى البرارى إلا فى المناسبات الكبيرة. وبما ان الارواح تتكتم على مواسمها واسرارها فلم يعرف فى السجل الآدمى أى ذكر لتلك الليلة التى ومض فيها الزار كاتم الاسرار ذات صف من العمر المستعار . على ان الذئاب الشرسة بقيت عند تخوم الصحراء حيث ثمة جبال تفصلها عن بعض المدن تهاجم من يفكر باختراق الحصار الذى تفرضه على الصحراء. ومهما امتد الليل وسطع القمر فى انخفاضه واستدارته تبقى النيران والقهوة تحن إلى ليالى السمر واحاديث الاجداد حين كانوا يتوغلون فى هذه البرارى يطاردون المغيرين ويتعقبون فلولهم المنهزمة .

إن المعتدى فى الغالب يلقى درسا قاسيا مهما زاد عدد افراده.. والارواح المتناثرة فى هذه الصحراء الشاسعة هى دليل على نسبة الموتى ودموية المعارك .. تبقى مرفرفة مستغيثة منذ كانت الجراح التى اتخذت الجسد سببا فى هروب الارواح الى خالقها.. وليس للقبور شواهد بعد تجاوز الجاهلية .. ولهذا تحفر القبور بصورة عاجلة بعد الصلاة على القتيل ثم يدفن فى ذات المكان لا احد يودعه بدمعة عابرة .. فالدماء تتناثر فوق الهضاب وبين السفوح .. تمتصها رمال الصحراء فيزيد ذلك من لمعانها ولونها الذهبى حتى ليحلو لها نثره فى وجه الشمس الساطعة.. يصطبغ به الافق البعيد . والنساء وحدهن اللائى يشعرن بفقدان الرجال الذين صرعهم الموت فلا تكفيهن الولولة لآماد طويلة لأن الاطفال لايكفون عن السؤال:- متى يعود ابانا؟ يتسارع نبض قلوبهن فى تلك اللحظات الحرجة عند اقتحام السيوف لتلك الاجساد الملقاة على ارض المعركة مضرجة بالدم تلفظ أرواحها على مهل .. وبصعوبة! الأرامل من النساء كن الضحية دائما

والثكالى من الاطفال الابرياء .. عند الفجر بلغا مدينة الرياض .. كانا متعبين .. فلم يتحدثا طويلا حين كانا يجتازان الاحياء الشعبية المأهولة بأناس تركوا لأحلامهم الرحيل فى متاهات المجهول فلا تشعر بأية بادرة إلى وجود مخلوقات من حولك ما عدا الرجال الطاعنين فى السن فهم اسدلوا عليهم(المشالح) حتى اخفت معالمهم ومضوا تحت الجدران يدبون بهدوء متجهين إلى المساجد او عائدين منها بعد ان ادوا صلاة الفجر يفكرون بالقهوة التى تعدها العجائز فى المنازل احتفاء بمقدم يوم جديد فى حياتهم .. ثم بالتدريج يستيقظ سكان المنزل حتى يتحلقون حول الموقد يحتسون القهوة مع الافطار قبل ان تتسلق الشمس الجدران فيتهمون بالخمول.

قبل ان يدخلا المدينة النائمة رأوا بضع عربات خارجها تحتها انوار خافته قدروا ان اغلبها ينام بالقرب منها بعض الاسر او رجال سئموا حياة المدينة فى الليل ففضلوا ان يقضوا أمسيتهم بعيدا عن مداخن الولائم التى يقدم فيها الطعام بشكل مبالغ فيه ثم يتمدد الضيوف وكل واحد يمسك بمعدته التى اتخمها بكثيرة ما حشر فيها من طعام لم تستطع هضمه لعدم نضوجه لاسيما لحوم الخراف التى استعجلوا فى طهيها حتى يرتاح اصحاب الدعوة من هذا الجمع الكبير الذى لم يعتد على السهر طويلا، وكذا أصحاب الشاحنات الذين يقضون بقية الليل فى البرارى بانتظار انتشار الشمس حتى يجدوا الحوانيت وقد فتحت كى يتسنى تفريغ البضائع التى احضروها من بلدان بعيدة تبعد آلاف الاميال ، تجاوزوها باستعمال بعض الحبوب التى تساعد على طرد الوسن من العيون بالاضافة إلى بعض السوائل الملونة التى تصنع فى بعض البلدان من الخضراوات والفواكه المتعفنة التى لا تقذف مع النفايات . قال سلطان ليطرد الملل عن وجه رفيقه هل سيعجبك العمل معى ؟ رد باقتضاب : هذا يتوقف على نوعية ما سوف تعرضه علىّ . أجاب سوف اجعلك مساعدا لى لان لك علاقات جيدة فى بعض الادارات الحكومية التى سوف نتعامل معها. انها وظيفة تناسبنى خاصة وانت رجل اعمال فى اول السلم لا يملك فائضا يناوله إلى الغير كما يفعل الكبار.

ترجلا بالقرب من منزل عمه في المربع حيث يربض حي شعبي قديم اقيمت منازله من الطين والقليل من الحجر.. كالحة المنظر .. طليت بعض أعالي جدرانه بالجص الابيض لتزيينها.. نوافذها عالية حتى لا ينكشف ما بداخلها ولتفادي دخول الغبار أثر الزوابع الفجائية التي تثور بدون مقدمات ، فتشكل خيمة غبارية فوق سماء المدينة لعدة أيام فتحجب الرؤية ثم تذر ذلك المسحوق الناعم الذي يعشي الابصار ويحرق العيون التي يصاب اكثرها بالرمد قبل ان تفرز الصديد فتهرع إلى حوانيت العطارين الذين يعرفون الادوية ، التي يمزجونها بأنواع من الاعشاب حيث ان العطارين هم بمثابة صيادلة الاحياء والمدن القديمة التي نساها التاريخ ، وانسحبت عنها مكتشفات الحضارة ولم يعد بينهما اي اتصال فعلي.. ورغم وجود بعض القصور الخاصة في ذلك الحي فمازالت الحياة بسيطة فيه فلم تستنكف ان تربط بعض الحيوانات قرب المنازل خاصة الحمير والبقر وبعض الماشية الاخرى والتي لا تستغني عنها في حياتها اليومية ، ومع ان الاطفال يجدون في هذا المشهد تسلية لهم عند ذهابهم إلى الدراسة أو العودة منها فانهم قلما يتعرضون لهذه الحيوانات بالاذى بل ربما يطعمونها مما معهم تقربا لها بعكس الحيوانات الاخرى ، لاسيما القطط والكلاب فانهم يطاردونها او يقذفونها بالحجارة فلا تصيبها في الغالب ، انما تصطدم بالمارة الذين يكيلون لهم بعض النعوت او يلاحقونهم حتى يختبئوا في ازقتهم أو منازلهم ، وكل هذه التصرفات تجري بصورة عادية وهي شبه يومية دون ان تحدث اثرا يذكر لولا ان الكلاب تنتقم لنفسها بعد أن يحل الظلام مباشرة فتأخذ في رفع عقيرتها في مختلف انحاء المدينة ، ثم لاتلبث في منتصف الليل ان تكون مجموعات يرأسها اكبرها سنا أو اشرسها باعا فتجوب الانحاء على انغام اصواتها الناشزة فتهاجم الكلاب الاخرى التي ترابط بالقرب من اماكن النفايات التي تتجمع فيها بقايا اللحوم والمآدب الكبيرة وربما تهاجم العسس حين يتدخلون لفض شجارها فتحدث معارك بالسلاح الابيض يسقط فيها جرحى وقد تمزقت اطرافهم وسال الدم منها.

(٣)

انشق البـاب عن كـهل في الخـامـسـة والاربعين من العـمـر يضـع نظارات طبية على عينيه ، مستدير الوجه حنطي اللون شاربه كث ولحيتـه صغيرة رفيـع القامـة طويل الانف صغير الفم شاحب الوجه الى حد ما ، بشوش حيث ان الابتسامـة ارتسمت على وجهة بمجرد ان رآهما .. فتقدم نحوه سلطان فأخذ بكلتا يديه ثم ارتمى على صدره بفرح واضح من الشوق واوسع وجـهه وكتفيه بقبلاته بينمـا الاخر يرحب به ويقبله تارة ويربت على ظهره تارة أخرى .. مرددا :– هلا بولدي .. حياك .. وانتظر عامر ريثما ينتهي هذا المشهد العاطفي فتقدم نحوه الرجل مبتسما وصافحه بحرارة قائلا:– حيا الله الخال . وكان صقر يرحب به كذلك بحرارة مما جعل عامر يعتقد بأن الرجل يعرف شبيهاً له من قبل لأن سمعه التقط كلمة (ولدنا) من بين كلمات الترحيب التي فاه بها.. وكان قد تنحى لهما عن الطريق قـائلا :– تفـضلوا حـياكم الله في داركم ، واصر سلطان على عـمـه ان يتقدمهما بلطف حيث دلفا في اثره بينما الرجل مازال يرحب بهما محييا مقدمهما.. وبعد ان اجتازا مدخل البيت سبقهما إلى غرفة واسعة قدر عامر بانها غرفة المجلس اذ شاهد حوانبها تصطف بمجموعة من المساند التي تنهض فوق مراتب قطنية أو قبنية على امتداد الجدران بينما توسطت الغرفة سجادة صينية ذات الوان زاهية ومن السقف تدلت نجفتا كريستال متوسطتا الحجم.. واشار الى المقاعد الارضية قائلا:– تفضلا .. واستريحا .. الفطور جاهز .. قال ذلك ثم خرج من الغرفة بينما سلطان لاحقه قائلا:– لا تكلف نفسك يالخال ما حنا اجناب .. وكان الرجل قد غاب من خلال المدخل عندما اعلن عامر :. واحسن الملقا .. فعلق سلطان مابعدك شفت شي .. وتنفس الصعداء وهما يمددان قدميهما على الأرض .. فقال عامر .. تعقدت رجلانا من جلسة سيارتك الفخمة .. فرد سلطان

مازحا:- هات اجرة الركوب يامفترى .. احمد ربك بوصولك من غير تعب ولا مشقة .. ثم تذكر شيئا نهض قائلا :- لقد نسيت احضار الخضرة من السيارات.. قال ذلك ثم انفتل الى خارج الغرفة بقفزة سريعة .. بينما استمر عامر يحدق الى الجدران التى تم دهانها قريبا فلبثت رائحتها عالقة فى ارجاء المكان .. فتذكر مدخل المدينه التى رصت على جانبى رصيفها بعض المقاعد الطويلة ذات السيقان العالية وبالقرب منها طاولات من نفس الصناعة عليها بقايا ادوات الشاى على ذلك الشريط حيث كانت هذه المقاهى الشعبية متنفسا للمدينة فى الامسيات الصيفية يرتادها بعض سكانها لقضاء الوقت فى الهواء الطلق بعيدا عن زحمة المنازل التى تكتظ بالنساء والأطفال .. اذ كان يقول بعضهم انها واجهة جميلة للمدينة تمكن الغريب من اللجوء اليها والبقاء حتى يصحو الناس من نومهم بدلاً من التسكع فى الشوارع والازقة المقفرة .. كما ان الاهالى يضيقون بوقتهم فى العطل الاسبوعيه فتكون هذه المقاهى تسليتهم الوحيدة . والتقى سلطان بعمه عند المدخل حيث ناوله حزمة الخضار التى احضرها معه كهدية من أسواق الدمام قائلا:- كدت احضر بعض السمك ولكن لم اجد طازجا فى (قمرة السمك) فعقب عمه .. لذيذ اكله رائحته كريهة وسمع سلطان خرير الماء ينحدر من المغسله التى شاهدها عند المدخل فتساءل هل ينوى الصلاة مره أخرى ونحن قد اديناها سوية؟.. سمعه يتمخط ويدلق على وجهه الماء بغزارة بينما انفاسه تتصاعد ويسعل قليلا.. (انه ينظف وجهه من آثار الرحلة الطويلة التى التحمت فيها الابخرة بغبار الجو الكئيب).

عاد الرجل يحمل صينية كبيرة وضعها على ارض الغرفة وقد رصت بالعديد من الصحون التى يحتوى كل طبق فيها على صنف من أصناف الطعام المجفف .. اجبان متنوعة .. قشطة .. مربيات.. فول . بيض مسلوق .. الى جانب دورقى الشاى والحليب وحزمة من الخبز قائلا:- (تفضلوا .. الفطور السريع .. وسامحونا على التقصير) .. فعلقوا .. مامنك قصور يا لخال ..منزل عامر .. قالوا ذلك ثم تحلقوا حول الاناء المتزاحم بالاطباق وهم يتشممون الرائحة المغرية للطعام

بعد جوع امتد لعدة ساعات في الطريق الصحراوى ، و امتدت الايدى على مهل تستدنى منها اكواب الماء ثم ارغفة الخبز الساخنه تتصاعد منها رائحة بخار القمح .. واخذت الايدى تصافح الاطباق وتنتشل منها ما يعجبها .. كيف كان الطريق ؟ تساءل العم صقر فرد سلطان وهو يضع رغيفه .. سالك .. ما رأينا حوادث . فعقب: حظكم جيد .. الاسبوع اللى راح تصادمت شاحنتان واحترقتا سويا !! عسى ما فيه احد متضرر .. ؟ ما عدا السواقين لحقهما جروح وحروق .. الطرق الطويلة كلها مخاطر .. من كم سنة كنا نسافر للدمام والشرقية قبل الاسفلت .. الطريق نأخذه على الرمل .. تسمع صوت السيارات تئن من شدة التعب .. نطلع جبال الرمل ثم تتنهد الارض كأننا نزلنا من السحاب .. قال ذلك صقر وهو يهز برأسه .. سبحان مغير الاحوال . ليلة كاملة نقضيها فى هذا الجهاد واحياناً اكثر اذا تعطلت السيارة .. والا زادت عليها السخونة من حرارة الجو .. كنا نقفز فى صحن العربيات مثل القرود .. لا نقر فى مكان ومن شدة الغبار والعجاج ما تعرف مين اللى جالس جنبك !! . وضحكوا لهذه الذكريات رغم انها مؤلمة باعتبارها من نوادر سفرات الشدة والكفاح .. وكان سلطان يود ان يسأله عن حياة والده لولا ان عامر كان اسرع منه عندما سأله عن التعامل مع حملة المشاعل فى الصحراء .. عندئذ مسح الكهل على زجاج نظارته بطرف شماغه والقى نظرة مستقرة حوله ليجيب باتزان .. الله العالم ان الجان كما ذكر فى كتب العلم والسنة يعيشون معنا على هذا الكوكب .. واغلبهم مثلنا من المسلمين .. ولكن بينهم ايضاً كفرة ومشركين .. وهؤلاء يحتكون بالانس .. ويمكن يحدث منهم اذى .. اما خيارهم فلا .. وفوق كل ذى علم عليم .. اختتم جملته الاخيرة مبتسماً وهو يوزع نظرته بينهما وكأنما يرجوهم اعفاءه من المزيد من هذا الشرح .. وقد وجد سلطان الفرصة مواتية ليطرح السؤال الذى ما زال يملأ رأس . اين توفى الوالد يا عم صقر .. اجاب بعد ان تنهد .. الله يغفر له مات فى حادث سيارة .. اسرع سلطان مستفسراً : – أين ؟

– فى طريق الدهناء .. اللى جيتوا منها .. ما كان كبيراً فى السن .. انما هى المنية.

تبادل عامر وسلطان نظرات سريعة توحي بالتساؤل والاستغراب ومع ذلك فإن سلطان لم ينتظر انما قال فجأة : - تصدق ياعمى انه تخيل لى انى شفته مع ربع المشاعل .. يرقص العرضة؟

تضاحك صقر وان ركز نظراته على ابن اخيه ظهرت عليهما علامات الدهشة فعلق ..

- الله يغفر له .. أنقت عظامه من كثر السنين .. فتدخل عامر قائلاً : -

- الروح باقية ياالعم .. فهز صقر رأسه وهو يفكر .. (كل شىء علمه عند الله) ولا تقول مثل هذا الكلام لاحد .. كان يركز نظرته على سلطان وقد اصفر لون وجهه مما جعل سلطان يكف عن اى تعليق .. انما مد يديه لتحيطا بسفرة الطعام محاولاً حملها .. فأسرع عمه .يساعده ويضع بعض الاطباق داخل صينية الطعام معلقاً .. ما اعجلك .. قال ذلك ثم اعقبها بضحكة قصيرة .. فتنهد سلطان .. علمتونا النباهة.

كانت خيوط الشمس قد بدأت تتسلل من فتحات الكوى والشقوق الصغيرة فى الجدران ومن تحت عتب الابواب العالية .. ومعها دفعات من نسمات هواء اليوم الجديد الذى اعلنت عنه الديوك منذ بعض الوقت وكذلك شقشقة العصافير من بعيد وهى تستعد للانطلاق من اعشاشها بينما صغارها تستيقظ للتو وتحاول ان تلحق بأمهاتها فى رحلة البحث عن الطعام.

قال صقر وهو يقف عند باب المجلس وقد عاد من نقل الصينية الى داخل المنزل .

- استريحوا ياالربع .. ونامولكم شوى.

فتذمر سلطان وهو يحك رأسه الحاسرة ..

- ودى اراجع الوزارة بخصوص العقد.

فأشار الكهل بيده قائلا : - تلحق فى يوم ثاني وشوله العجلة .. ما حبك للفلوس .. الرأى انك ترتاح .. ولا حقن على الشغل وغرابيله .. فتمدد سلطان على المرتبة التى يجلس عليها موجهاً حديثه الى عامر .

– هاه .. وش تقول انت !

فرد وهو الاخر يحاول ان يعدل من جلسته:

– اللى يقول العم .. اظنه هو الرأى السنع .. فداعبه سلطان قائلاً : –

– اجل .. اهجد .. ولا نسمع صوتك.

واسدل غترته على وجهه ثم اناخ احدى الوسائد ووضع رأسه فوقها ، بينما تحرك الكهل الى الخارج قائلاً : –

– الوعد عند اذان الظهر ..

– ان شاء الله.

وانهمرت الدموع من عينيه كأنما كانت موقوتة فى اجواء الوحدة والحذر كالحزن الذى يتغشانا دون ان نستطيع له تفسيراً .. فتمتم (مع الحب يا قلب لا تحزن).

(٤)

قـال سلطان بطريقـة مسـرحيـة : خـال .. بـارك لنا .. مناقـصـة رست علينا .. فخلع عمه صقر نظارته قائلاً مبروك .. عساكم زودتم فى السعر ..؟

فحرك سلطان يديه فى الهواء ليجيب : – المنافسة شديدة .. بس ان شـاء الله بناكل منها خبزة تشبعنا .

فتضاحك خاله معلقاً : – لا تكونوا قنوعين .. اطلبوا الزود وتراه بيجى .

– اجل هذه نصيحتك ؟ ايه .. لان فيه ناس يبغون حقهم منكم .

ثم تساءل : – طيب .. ومن خشيرك .. اللى بيدعمك بالمصاريف ..؟

لقيت شريك ابن حلال .. وان شاء الله ماهوب متعبنى ..

هز رأسه بـهدوء .. الله يوفقك .. بس انتبـهوا لشغلكم ولا تعتمدون على غيركم .. ترى ما حك جلدك مثل اظافرك ؟ خابرين ..

ما احد خـايف على حـلاله مثل صـاحبه .. ومـا نسـتغنى عنك يا عم بالمشورة وغيرها – انا حاضر بكل شىء .

إلا الدراهم ما على منكم .

فتضاحك سلطان معلقاً : – عند الحاجة بيهديك الله .. فقال عامر : – واذا دخلوك شريك ما تعينى ؟ فنقل الكهل نظراته بين الاثنين وكـأنما ليستشف هل هما على اتفاق مسبق لطرح هذه الفكرة ام جاءت كاقتراح من ذلك الشـاب . فقال وهو يعدل من عقاله : – لكل حادث حديث ثم اضاف ما خلصتوا .. انا رايح لشغلى .

فرد سلطان : – رح حافظك الله .. وحنا بنروح بطريقنا – اجل السلام عليكم والموعد عند الظهر .

لا .. أتأخرون .. قال ذلك ومضى نحو باب الخروج ..

كان شارع البطحاء الذى يمتد بطول وسط المدينة من شمالها الى جنوبها يعج

بالحركة الصباحية حيث ينطلق الموظفون الى اعمالهم والطلبة الى مدارسهم ، بينما عشرات العمال يتجمهرون على جانبى الطريق بحثاً عمن يعرض عليهم العمل فتجدهم يتراكضون من كل الجهات بمجرد أن يروا شخصاً يوقف عربته ويتلفت بحثاً عن ضالته من بين هذا الكم من العمالة العاطلة والتى تبحث عن فرصة عمل مهما كان نوعها .. والعمالة خليط من كل الجنسيات واللهجات فتستغرب كيف اجتمعت فى هذه البقعة من العالم بمحاذاة المجرى المستطيل والممتد من شمال المنطقة الى جنوبها حيث ما يسمى (بالحائر) والذى تتجمع فيه المياه المتسربة من الوديان الملاصقة له من عدة جهات .. هذا المجرى الجاف يمتلىء الى منتصفه بالماء فى فصل الشتاء من الامطار التى تنحدر من طريق المطار القديم والمربع عند دوار سميراميس حيث بداية المجرى ..أما فى فصل الصيف وبعد نضوبه بفعل اشعة الشمس الحارقة فانه يتحول الى وعاء نفايات ضخم .. إذ ان أى مار من ذلك الطريق يحمل علبة أو أى شىء يريد التخلص منه فالمجرى يتقبل ذلك الصنيع طيلة ذلك الفصل الطويل من السنة دون تذمر ، ورغم التعليمات والتحذير فان الجميع يضعون أذناً مقفلة أمام تلك النداءات الصحية اذ لا يشعر بأثر تلك النفايات وتفاعلها سوى القاطنين على جانبى المجرى من اصحاب الشقق الكثيرة فالنسمات التى تصلهم عبر ذلك المجرى تحمل لهم رائحة كريهة تضطرهم الى احكام اقفال الشبابيك طوال فترة الصيف ، وفى هذه الحالة فهم سوف يضطرون الى الاستعاضة عن الهواء الطبيعى بالهواء الاصطناعى عن طريق مكيفات الهواء كما هو متبع فى أكثر الدول الحارة مثل افريقيا والخليج العربى .. ومع ان التشغيل الكهربائى مكلف لاستهلاكه حجماً كبيراً من التيار الكهربائى فليس من مندوحة عن الالتجاء الى هذه الوسيلة لاسيما بالنسبة للاغنياء ولمتوسطى الدخل .. اما الفقراء فيعانون من الحرارة ولا يتذمرون لان هذا قدرهم .

وهم سائرون فى هذا الطريق سأل سلطان زميله عامر : – هل تذهب معى ؟ .. أجاب عامر وهو يتلفت فى المحلات التى يمرون عليها : – أود أن أذهب الى

بعض الاصدقاء فى جريدة الفجر .. فاحتج سلطان قائلاً : - من أول وصولك بدأت تفكر بالاصدقاء .. ؟، وهل لى سواهم فى هذه المدينة .. ؟ فعلق : - تريد ان تصدع رأسك بالنظريات السياسية والفلسفية ؟ لا تنس ان هوايتى هى الادب .. رد بسرعة : - اعرف وكنت مثلك قبل ان افكر بالتجارة . اما الآن فلن يكون لدى وقت للتفكير بمثل هذه الامور. فتساءل : - والعمال؟، لهم الله ولابد من معاناتهم لحين اخذ حقوقهم .. قال ذلك واوقف عربته فى جانب من الطريق وتابع : - متى ترجع منهم ؟ لا اعلم .. انما موعدنا فى المساء .

وترجل من العربة ومضى الى الجهة الشرقية من الطريق حيث امتداد شارع الريل .. وبدأ يفكر بصديقه سليمان المسئول عن التحرير فى الجريدة .. منذ متى تعارفا ؟ تذكر ان الجريدة هى التى جعلت منهما صديقين حميمين .. فهوايته للصحافة دفعته الى ان يراسل هذه الجريدة بالذات ويزودها ببعض افكاره البسيطة .. مجرد اقتراحات مما جعل سليمان هذا يتدخل لابعاد بعض العبارات والجمل التى قدر أنه قاسية أو جارحة وقد تجره الى المساءلة مما جعل عامر وقد تنبه الى هذا التدخل ان يكتب رسالة تحمل بعض العتاب انما تضمنت الشكر ايضا لعدم إلقائها فى سلة المهملات كما كان يشكو الكثير من اصدقاء عامر وزملائه فى العمل ثم التقيا عقب ذلك بعدة أشهر حين حضر سليمان تدشين أحد المشاريع فى المنطقة مما جعل علاقتهما تصبح متينة لما أصر عامر على دعوته إلى وليمة حضرها مجموعة كبيرة من الشباب الذين يتابعون تلك الجريدة ، ويعتبرون من قرائها والمعجبين بنهجها الذى يتسم بالشدة والنقد الصريح للمشاريع الحكومية والأوضاع الاجتماعية مما جعل طائفة كبيرة من الشباب يلتفون حولها ويعتبرونها ناطقة باسمهم . ومن هنا فإن النشر فيها كان يعتبر بمثابة تقدير واعتراف بمكانة الكاتب من ناحية الوعى والنضوج الفكرى . وهكذا فإن سليمان لم يكد يعود إلى مقر عمله حتى كتب مقالا أشاد فيه بوعى الشباب الذين التقى بهم وتعهد بمواصلة المسيرة التى درجت عليها الجريدة فى طرح اراء الشباب وتطلعاتهم المستقبلية فى الوقت الذى كانت تتأجج فيه الافكار التحررية فى الوطن

العربى والمطالبة بالوحدة العربية .. وكانت الشعارات البراقة والمغرية أيضا تنطلق فى خضم هذا الزمن المتغير لا سيما بعد هزيمة الانجليز فى القناة واستعدادهم للخروج منها ، والتى كانت تعتبر أكبر قاعدة استعمارية فى القطر العربى آنذاك بل فى الدول العربية كافة حيث أن قاعدة الاستعمار تعتمد على نفوذه فى مصر والعراق وبين هذين القطرين كانت تحاك المؤامرات بواسطة صنائع المستعمر فى هذه الاقطار ضد بقية الدول العربية ، وحصد الحصيلة الاقتصادية الكبيرة من استغلال خيرات هذه الدول وزرع الاحلاف الاستعمارية التى أفادت اليهود فى فلسطين وقوت نفوذهم فى العالم وامدتهم بالسلاح والمعدات بل الرجال سواء فى ذلك تطوعا أو المرتزقة بالاغراء المادى ، ومع أن المظاهرات كانت تعم أكثر الدول العربية لفضح ركائز الاستعمار فإن هذه القوى كانت تختبئ أيضا وراء الشعارات البراقة وتعمل فى الخفاء مما جعل اختلاط الحابل بالنابل أمرا متوقعا.

فكانت بعض الاذاعات العربية والصحف تصور هذه الروح الجديدة فى المجتمع العربى لتجعل التأثر والتأثير على كافة المستويات .. ومن هنا فإن بعض صحفنا كانت تعزف على هذا المنوال الجديد بحذر شديد وبعقلانية واتزان بينما يتجاهل هذه التيارات البعض الآخر .

ضرب عامر على جيبه حتى يستمع إلى (خرفشة نقوده) فكاد يتعثر فى مشيته ويكون ضحية عربة قديمة خرجت من زقاق جانبى ولم يسمع ضجيجها بسبب ضجيج أفكاره القديمة .. ومع أنه كف مؤقتا عن الغرق فى ذلك التيار البعيد فقد تساءل بإشفاق هل الوطن يستحق التضحية وأن يضرب أولئك العمال بالعصى ويرمون فى التوقيف عدة أيام، بعيدا عن أسرهم . كلمة الوطن وقفت فى حلقه وكأنما هى بالون دخل إلى فمه وانتفخ من تلقاء نفسه فلم يعد يستطيع التنفس أو يقفل فمه بل شعر أن ذقنه ارتخت حتى تكاد تنفصل عن جسده فرفع يده حتى يعيد ذلك الجزء إلى مكانه الطبيعى . يالهم من جبابرة أولئك الذين ترددت أصواتهم عالية تجلجل الأرض وتسلب السماء هدوءها .

كم أنت بليد أيها القروى النحيف لماذا لا تقرأ جيدا حتى يمتلئ رأسك بما يشيب منه الرضيع حتى لتعرف ما يجرى فى العالم .. أنت جيد فى ابتلاع الطعام أكثر مما تغذى عقلك .

طال عليه المشوار وهو يتخبط فى هذه الأفكار المحزنة التى داهمته دون سابق انذار حتى أنه حين تقابل مع صديقه سليمان احتضنه هذا متسائلاً ما بك .. وجهك أصفر ؟ اقتعد كرسيا بجانبه مجيبا:

– لا أدرى .. ولكنها الأفكار الشيطانية التى هاجمتنى دون سابق انذار . أشار إليه قائلا : ارتح .. ولا تشغل ذهنك لأن حبال الدنيا طويلة . كان سليمان كما عهده ربوع القامة حنطى اللون يميل إلى البياض .. عيناه سوداوان واسعتان يستعمل نظارات طبية .. مستدير الوجه ، شاربه كثيف الشعر وذقنه صغيرة ، انفه مستقيم وفمه صغير الذى لا يخلو من سيجارة بين شفتيه ، باسم المحيا هادئ الطبع .. مكتبه الصغير يمتلئ بالصحف وأغلفة الرسائل بينما قلمه يسكب مداده على الورق الذى أمامه فاضطر إلى تنحيته جانبا .

(٥)

قال مرحبا : حياك الله .. الحمد لله على السلامة .. متى الوصول ؟.

رد عامر وهو يبتسم : الله يحييك .. وصلنا فجر اليوم .

– وكيف الطريق .. متعب .. هه .. ؟

– لأنه طويل .. ولا شئ يؤنس المسافر سوى امتداد الصحراء .

ضحك معلقا : اتريد أن يزرعوا الصحراء ؟

– لا .. إنما تحتاج إلى استراحات فى الطريق .

أجاب مفكرا وهو يتنهد :

هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى عناية واهتمام .. ماهى أخبار الأصدقاء فى الشرقية؟ .

– جميعهم يسلمون عليك .. وينتظرون زيارة أخرى لهم .

– الله يعينى .. الشرقية حلوة برجالها .. وهم أوفياء بصراحة.

– الوطن واحد .. وكلنا نعشقه .

تنهد ليعلق : بل نفتقديه .. وهو هاجسنا ليل نهار.

دخل إلى الغرفة الواسعة شاب أسمر يرتدى ثوبا أبيض على رأسه كوفية وبيده اليمنى يحمل ابريق الشاى بينما الأخرى تحمل صينية معدنية عليها بعض الفناجين .. تقدم نحو الضيف وهو يبتسم ثم انحنى قليلاً بجذعه الطويل حتى تكون الصينية المعدنية فى موازاة يد الضيف فسكب عندئذ من سائل الشاى الذهبى فى فنجان على انحائه بعض الخطوط الملونة ، وعقب أن امتلأ الفنجان اخرج أسنانه من فمه حتى يتسنى له أن يقول كلمة واحدة لا يعيدها ثانية (تفضل) ، لا يكاد الضيف يتناول فنجانه حتى يبتعد عنه للذى يليه فإن لم يجد أحدا ذهب إلى الرئيس الذى ينشغل ما بين القراءة أو اسالة لعاب قلمه على الورق.

ومع ذلك لا يستطيع أن يتلفظ بكلمة يكتبها عدة مرات ويعود إلى مسحها (عاشت الحرية) إنها كلمة لها وزنها حتى تخيف من يطلقها دون تفكير . كلمة تتلمظ طعمها المرأة المطلقة أول مرة ثم تنتحب طوال الليل عندما تشعر بالوحدة .

نساؤكن أمهات فأصبحن عانسات بقية العمر .. من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .. اهذا قول للمسيح أم الدجال ؟ لا أحد يعرف الحقيقة لأنها ممتنعة عن الظهور إلى قيام الساعة .

اكتشف أنه يقرأ قصاصة دفعها له صديقه سليمان بينما فنجان الشاى يتراقص بين أصابعه فارغا . وكان الشاب الأسمر قد اختفى بعد أن دار دورته الاعتيادية فى أنحاء الغرفة ومضى إلى مكمنه لا يتحرك حتى يسمع اشارة استدعاء تئز من الجرس الكهربائى فوق رأسه .

شعر بامتعاض من إكمال قراءة الرسالة التى حسبها تتحدث عن عالم غريب آخر لم يعرفه فى حياته خاصة حين قرأ بأن الزنوج يأكلون أطفالهم حين يكثرون من النحيب بسبب الجوع شأن ما تفعله ذكور القطط من (العتاوية) .

تنحنح سليمان ليقول : وهو يريح قلمه جانبا - سامحنى .. انشغلت عنك .

أجاب على الفور : معذور .. المشغول لا يشغل .

وواصل سليمان : الليلة نسهر سوياً .. بعد العشا .

تساءل باستغراب : نسهر على ماذا ؟

- نلعب الورق .. نسمع الراديو .. نتابع التمثيليات الهزلية فى بعض المحطات .. وأضاف ضاحكا : وألا تعد النجوم وأنت متمدد على فراشك فوق السطح .

فشاركه الضحك قائلاً : - يمكن النوم احسن .. وسمعا سعالاً من جهة المدخل ثم من يقول : - السلام عليكم .

كان القادم سند الدسم كهل فى الاربعين من العمر ، اسمر اللون نحيف الجسد حاد الطباع ، منابعه الثقافية محدودة جاداً فى تصرفاته وان كان يميل الى السخرية ، متزوج وله ثلاثة ابناء يميل الى القصر له شارب صغير وذقن قصيرة ، مستدير الوجه صغير الانف ، شريك فى المطبعة التى تطبع جريدة النور كما انه يملك الجريدة ، يحب السفر الى الخارج كريم النفس .

نهض سليمان ومد يده لمصافحته وهو يردد وعليكم السلام .. حياك الله كما نهض عامر احتراماً للقادم ثم صافحه بينما كان سليمان يقوم بالتعريف بينهما قبل ان يقتعد كرسياً .. حيا الله ريح الشرقية . فتضاحك عامر ليقول : - ريحة البترول شينة ..

فافتغر ثغر الآخر عن ابتسامة ليجيب : الريحة سهلة لأن الدراهم تغطى على كل عذروب .

فتدخل سليمان ليقول مبتسما :

أنا أشهد أن الدراهم تجيب العروس .

فعلق الدسم قائلا : أشوفك تفكر بالعروس .. ما تكفيك أم عيالك !

فرد سليمان بسرعة : التجديد .. يقولون زين .

فتدخل عامر ليقول : أنا ما جربت العرس ولهذا السكوت أحسن.

فقال الدسم مغيرا الحديث : ويش أخبار اليمن .

فرد سليمان بسرعة : هدو .. وانتهت المشاكل .

فعلق عامر : ما أظن .. المشاكل جاية فى الطريق لأن القبائل ما تسكت .

دخل الشاب الأسمر يحمل أدوات الشاى مسرعا ومضى إلى الدسم مباشرة قائلا بابتسام : عمى تشرب شاى .. وألا اجيب القهوة .

فهز الدسم يده قائلا : هات اللى معك .. ثم جب القهوة .

ووقف الأسمر ينظر إلى الأرض بينما يسرق النظر بطرف خفى الى الرجل الذى له كلمة نافذة فى المطبعة وكذلك الجريدة ، والذى لا يجهل أطواره المتقلبة بين البشاشة والغضب والهدوء والزمجرة حتى يحار المرء لمعرفة ما يدور فى ذهنه . ولما أعاد له فنجان الشاى بعد أن شرب أكثر من نصفه بقليل ، ثم أعقب ذلك بكلمة (هات القهوة) تناول الفنجان ومضى مسرعا إلى الخارج متمتما .

- ابشر .. حاضر .

طفق الدسم يتابعه بنظره حتى غاب ليقول موجها الحديث إلى سليمان .

- والله إنه نشيط .. ويستاهل نزيد معاشه .

كان سليمان حينذاك يعالج مفاتيح راديو الترانزستور الذى يقبع بجانبه على نضد صغير حتى استقرت الوشوشة على محطة كانت تدق فيها ساعة المحطة أعقب ذلك صوت المذيع الذى صدر بصوت متعجرف بملخص الأخبار . وكان الحضور يصغون السمع إليه باهتمام . وبعد انتهاء الموجز علق سليمان وهو يقفل المؤشر : مافيه جديد .

فعقب عامر : فى آخر الليل تسمع كل أخبار الدنيا .

فقال الدسم : الاذاعات ما عندها غير الخرطى .. وشغلهم كله بالدس ما يعلم فيه إلا الله .

فرد سليمان : أنا أشهد .. المؤامرات كلها فى الخفاء .

واقتحم المدخل فى تلك اللحظة سلطان قائلا وهو يرفع يده : السلام عليكم .. جميعا .

نهض عامر لاستقباله وكذلك فعل الاخران وأخذ يصافحهما واحدا بعد الآخر معرفا بنفسه ليضيف .. سامحونى فهذه أول مرة ازور فيها جريدة ولا أعرف البروتوكول كما يقولون .

ولما اقترب من عامر أضاف : هذا هو السبب فى ازعاجى لكم .

فرد سليمان على الفور : بالعكس .. جعلنا نكسب قارئا جديداً .

فعلق سلطان وهو يجلس : أما هذا فصحيح لأننى لا اقرأ سوى المجلات الأجنبية .

فعلق الدسم ضاحكا : يهكون عليكم مثلنا .

فرد سلطان : الهك والكذب عند ربعنا والاجانب ما يعرفون غير الصراحة .

فتدخل سليمان قائلا : أشوفك تسوى دعاية للأجانب يالاخ .

فرد سلطان باصرار : الصحافة عندهم فيه ناس يحاسبونها إذا قصرت أو ما قالت الصراحة .. والكذاب ماله عيشة عندهم .. ناس يحترمون الكلمة .. والقارئ.

فتدخل عامر موضحا : ترى الأخ سلطان ما يقصدنا وبس .. إنما قصده كل الصحافة العربية .

فعلق سليمان : لا .. الأستاذ متحمس أكثر من اللازم .

فقال سلطان : بلاى من الغيظ والزعل .

فرد الدسم : حنا راضين بصحافتنا .

وهنا وقف عامر قائلا : غيروا الموضوع بالربع قبل ما نزعل بعضنا.

قال سلطان فى نفسه : أحسنت يا عامر لأن الكثيرين لا يريدون الاعتراف بالحقيقة الصارخة .. يحبون طريقة النعامة فى دفن رأسها بالرمال .

الحقيقة مرة يا عامر . وراحتكم فى خداع أنفسكم . ثم رفع صوته قائلا :

اللى يبى يريح نفسه .. يشجع الرياضة وينتسب إلى فريق .

فتساءل سليمان : وأنت ..

فضحك بصوت مرتفع ليقول : أنا أحب رياضة السباحة .

فعلق عامر : أكيد .. بعكس التيار .

فضحكوا جميعا فى حين دخل الأسمر حاملا دلة القهوة.

(٦)

كل واحد تمدد على فراشه، حتى الخال صقر شاركهم الغرفة وان بدا متذمراً حين الح سلطان من جديد إلى انه سوف يستدين منه بعض المال غمغم أكثر من مرة ساخراً.. شباب مادى.. تشربوا بعادات الأجانب.. جيل خفيف مثل الجراد.. لا هدف ولا اتجاه.. الريح تدفعهم اينما تشاء.. يتنافسون على أى شجرة يحيطون بها.. المادة هى شغلهم الشاغل.. ماذا سيفعلون بعد ان يكبروا قليلا؟ زمان غريب ياللتفاهة؟

فيستثيره سلطان قائلاً:

– حنا غرسكم يا خال.. انتم علمتمونا على حب المال.

وسرح عامر بفكره وهو يستمع إلى هذا الحوار المتجدد بين الأجيال..

غرسوا فحصدنا.. ونغرس فيحصدون .. الحياة هى اذن غرس وحصاد ..

ذلك هو تلاحم الاجيال وتلاقحها منذ بدأت الخليقة وحتى قيام الساعة.. انه قدر البشرية جمعاء.. النطفة هى المصير فإما ان تكون قابلة للتلقيح فتتحول إلى علقة واما ان تفشل فتنطفىء الجذوة ويتبعثر الجهد.

فهل يعنى هذا ان النطفة تعادل الذرة التى تم تلقيحها فتحولت إلى بذرة فاجعة ان اسىء استغلالها وتفجرت فتكاً وصواعق لا تبقى ولا تذر؟ هل تسلم الانسان قدره ليعبث به؟ ، وهذه النظم الوضعية الفاسدة من شيوعية إلى رأسمالية ما شأنها الفعلى فى قدر الانسان؟ أليست الاديان السماوية هى الأولى بأن تتبع طالما ارادة الله هى الغالبة؟ هجين متبعثر بين الأقوام فلا الاسود سوف ينتصر ولا الابيض أو الاصفر لان القدر لهم بالمرصاد ..

فهل انا قدرى؟ وما الايمان بالمطلق؟

حشوا أدمغتنا بالمطلق والمستحيل حتى غدونا مجرد احجار على رقعة النرد تحرك كيف يشاءون.

وخطر له ان يستعرض الافكار التى يطرحها على مسامعه صديقه سلطان لماذا طبقة البروليتاريا احق فئات المجتمع بالعيش الرغيد؟ ، أليس العلماء والمبدعون هم عماد المجتمع والموجهين له بينما الفئات الاخرى تابعة لهؤلاء العباقرة من صناع التاريخ ورواد الحضارة ؟ كيف يتسنى لأى مجتمع ان يخترق السدود ويندفع فى مواجهة اقسى الظروف ما لم يكن رواده فى مقدمة الركب وحاملى لواء التجديد والابتكار؟ وهؤلاء الذين اصبحوا سلاطين المال كيف يسوسون دولهم ما لم يحالفهم صناع التاريخ ورواد الحضارة؟

الدين وحدة الذى يحافظ على حقوق الآخرين ويصون الكرامة للانسان ، مهما كان موقعه لأنه لا يفرق بين فقير وثرى حاكم أو محكوم، صغير أو كبير مهما كان جنسه أو لونه.. تلك هى الصفحات النظيفة التى لم يتلاعب بها أحد.. ولا يصلها اعتى الأباطرة.

واكتشفت ان زوايا سقف الغرفة تعشش بها صغار العناكب النحيفة الأطراف.. انها تغزل من لعابها هذا السائل المطرز بالخيوط فلا يلبث ان يتحول إلى خيمة رقيقة الاضلاع مترامية الاطراف تحبل للذباب حتى تقتنصه كفريسة سهلة لوجبة تمتد لبضعة أيام.. وقال فى نفسه وكأنما يكمل رأيا فاه به من قبل.. حتى هذه عليها حسابها لاحقاً.. ثم سمع الخال يقول ناصحاً: - يا دولدى لا تصير خفيف وتعطى من غير حساب.. ربعهم كثيرين.. تلقاهم فى كل موقع.. والحرص واجب والا مصيرك الخسارة وعندها.. ما احد يسمى عليك.. ولا يساعدك.

تمتم سلطان وهو يتثاءب: - لا توصى.. حريص .. اعرفهم .

ويمضى الليل بين سائل لا يسمع جوابا أو متثائب يضيق بهروب الكرى حتى همدت الاصوات بعد لاى ، وتصاعد الشخير لتنطلق الاحلام ترفرف فوق الرؤوس المتعبة وهى تمضغ انين سهرها وتشابك لا وعيها.. راحلة نحو فيئة الوحدة

الغامضة والتى قد تعكس فرحة عابرة أو خيبة مؤلمة أو تومض أملا سرابيا يطفو على الذهن.. وكان عامر الوحيد الذى يستطيع ان يقبض على حلمه ثم يعيشه مستيقظاً حتى لا تتسرب من ذهنه كافة خيوط الحلم.. وعامر هذا نال هذا الاكتشاف حين اصبح يتيماً بعد وفاة والديه واحداً بعد الآخر اثر مرض يبدو انه انتقل من احدهما إلى الآخر ولم يمهلهما كثيرا لعدم تلقى أى علاج فى قريته المنسية فى اقاصى خارطة الزمان.. كان آنذاك فى التاسعة عشرة من عمره وقد مكث وحيداً فى منزله عقب رحيل والديه لبضعة ايام تحقق له خلالها ان يكتسب خاصية القبض على الحلم لانه كان خفيف النوم سريع اليقظة.. وكان اختلاط الحلم بيقظته يجعله يصحو ثم يواصل متابعة الحلم.. وقد اخفى هذا الاكتشاف حتى عن اقرب الناس إليه.. ولهذا فانه بعد وقت قصير تنبه الى ان الحلم يقوده الى خارج المنزل.. فمضى حتى التقى ببعض المصلين الذين اخبروه عن موقع المسجد.. ومع ذلك فقد عاد إلى المنزل ثم واصل نومه.

وقد تنبه الخال صقر إلى يقظته واراد ان يعنفه على خروجه فى ذلك الوقت غير انه عدل عن ذلك حين شاهده يغط فى نومه.. فاقترب منه حتى يشعر بتتابع انفاسه الهادئة ولم يفطن الى حركة يديه وتشابك اصابعهما ثم انفراجهما لاعتقاده انه غرق فى الحلم.. ووجد انه من الكياسة ان يدعه يتلذذ بوحدته فى منزله.. على ان ما لفت نظره ان يراه وسيما جدا على عكس ما كان رسمه فى ذهنه عن صورته.. كان ابيض اللون مشربا بالحمرة.. ذا شارب دقيق ناعم فى وجه مكتمل الاستدارة.. الانف فوق فم صغير ذى شفاه حمراء ناعمة وذقن مدببة تتوسطها فلجة صغيرة حاجبه اسود كثيف الشعر.. تتردد انفاسه بهدوء مثل طفل يختمر البراءة.. فعاد الى فراشه منشغل الذهن تسرى فى اطرافه رعشة مستثارة.. كما تنبه إلى خشخشة جناحى طائر قرب النافذة ثم سمعه يغرد شأن البلابل.. وهكذا تسلل ضوء الفجر الشاحب منخرطا من شجرة السدر التى تلامس النافذة بأغصانها المحملة بالنبق المكتنز.. وتذكر الحارة التى كان يقطنها ذات يوم على طرف البطحاء.. قبل بضعة أعوام وتدعر العود بيد انه قبل ان

يسترسل في هذه الذكريات. انتبه الى ان الفتى يرفع رأسه عن الوسادة ويعتدل في جلسته. بادرة قائلا: ـ صباح الخير..

فنفض الفتى رأسه واجاب: ـ صباح الخير يالخال.. ما شاء الله تصحى بدري..

فرد الكهل وهو ينهض : اقترب موعد صلاة الفجر.. واسمع الآذان من بعيد.. قال ذلك وهو يشير بيده التي شمرها استعداداً للوضوء.

ولم تلبث اصوات الديكة ان ارتفعت مسايرة لسماع الآذان فشعر الكهل بقوة جديدة تسري في أطرافه فمضى الى داخل المنزل ربما لايقاظ اهله واستعدادا للصلاة ، بينما امسك عامر رأسه بين يديه مفكراً بما سوف يفعله ذلك اليوم إذ ان احد زملائه هاتفه مشيرا عليه بأن يراجع شركة معينة تبحث عن موظفين اضافيين واعطاه عنوان الشركة قريبا من الجامع الكبير وسط المدينة بينما كان قد وعد سلطان بأن يعمل معه ، وهذه الحيرة جعلته يلتفت حيث يتكوم سلطان فوق فراشه وقد انحسرت ثيابه عن ساقيه تتردد انفاسه بهدوء وكأنما يشاهد منظراً ملك عليه حواسه وشد اهتمامه ففكر بأن يوقظه ولكن عدل عن ذلك تاركاً اياه في دنياه الغامضة.. حتى حين رفس الغطاء من جديد لم يتغير موقفه مردداً في نفسه.. دعه في عالمه الباطني لعله في اشتياق الشقراء وجحيمها يحتضن عشقه.

(٧)

استرسل فى التفكير.. هل للحب جحيم.. وماذا عن النعيم؟

آخر رواية عاطفية قرأها بعنوان الحسناء والكهل جعلته يبكى.. وهى قصة حب غريب نشأ بين فتاة فى العشرين من عمرها جذابة شقراء.. ورجل شيخ فى الستين من العمر ليس فيه ما يلفت النظر سوى عيناه الجريئتان وقدرته على التحدث والسيطرة على من حوله بلطفه ودماثة خلقه.. وقد تعلقت به الفتاة منذ تعرفت به واخذت ترافقه اينما ذهب وتحصل على المواعيد يوميا.. ولم تلبث ان صارحته بحبها وباستعدادها الاقتران به.. وقد اسقط فى يد الرجل الذى سحرته بجمالها وشبابها ايضا وان احتار كيف يقترن بها فى مثل هذه السن ويبدأ معها حياة جديدة.. اهله انكروا عليه هذه العلاقة التى تعيده مراهقا فى هذه السن بينما الفتاة تعلن بأنها ستبقى عانسا ما لم تقترن به.. وفكر هل فى هذا الزمن الدموى الاغبر - زمن الانقلابات العسكرية - يعيش النمط الرومانسى جنبا إلى جنب؟ اى منحدر يجتازه العالم فى هذا العصر؟

سحقا للقطبين الكبيرين.. لقد سمما اجواء العالم بصراعهما الدموى.. ألا يوجد مرفأ آمن فى كل هذه الدنيا؟

بلى.. انه فى حنايا النفس فى دواخلها الصافية التى لا تنشد سوى الهدوء والدعة والعيش بسلام بعيداً عن العنف والكراهية والضغينة.. الانسان السوى يبحث عن الطمأنينة والانصراف الى عالمه الداخلى الذى يتيح له ان يتبادل الود وباقات الورد مع جاره وحبيبته.. انه يحلم بحدود تحيطها المحبة والوئام وليس التنافس والخصام.. الحياة جميلة جذابة لو احسن استغلالها وتشابك اغصانها درس لنا ينبغى استيعابه كما فى قصة الفتاة الكاعب والكهل المسكين.

وتذكر العنوان الذى يرقد فى جيبه.. انه قريب منه.. تلك مبانى الامارة استدر وتوغل فى السوق الشعبية تجد لوحة المصرف واجهته ساحة مستطيلة فى نهايتها

حاجز خشبي يجلس خلفه بعض الموظفين بانتظار خدمة اى مراجع لهم.. وقد فاجأه عند دخوله رجل امن يعلق سلاحه على خاصرته بواسطة حزام ذى فصوص لامعة عابس المحيا فاكفهر وجهه لهذا اللقاء وتحامى عنه بالنظر إلى ما خلف كتفه بانزعاج وقلق متسائلاً ما ضرورة حمل السلاح فى بلاد آمنة؟ أهى مغازلة للجاهلية التى اندثرت بعد ان تنادى سكان الجزيرة وقوفا أو جلوساً.. الله أكبر.. الله أكبر.. ولم يجد المروق من سبيل سوى الاتجاه إلى باطن الصحراء حتى يدفن ضلاله بين شعاب الفجور..

تأمل الجلوس بعيون تخثر فيها الوسن.. هل يعمل هنا ويستنشق هذا الهواء الهفهاف يأتى معلبا من السقوف العالية؟ كماشة الليل سوف تتحدر حتى تمتص الضوء الذى يتسرب من الشقوق الواجفة فى محاذاة القضبان السوداء السمكية مقددة ومبرومة من الفولاذ يعبس لها الهر الطاعن والامرد النحيف.. النساء السمراوات لا يحفلن بحرارة الأرض فقد تمرسن فى ترصد اللظى والعطش.. ينخر السوس بالحبوب التى يكومنها أمامهن حتى يستشهدن بنظافة ثيابهن الاصابع الطويلة النحيفة حاذقة فى استلال القمل حين يسرى فى الشعور الخشنية وحتى بين طيات الثياب التى لا تعرف الماء.. مبسطحهن قطعة خيش لوحتها الشمس وخرق معجونة بالتراب بينما اكياس الخيش تقتحم هذا المبنى يتكدس داخلها أوراق النقد من كافة الفئات الورقية.. خطوات قصيرة بين الفقر والغنى الجوع والتخمة.. ولله فى ذلك حكمة.

جلس امام مدير الفرع فترة قصيرة من الزمن.. اطلعه على ما يحمل من أوراق تتعلق بخلفيته العملية والدراسية.. ابتسم.. المدير ليقول له: - اترك لى شهاداتك.. وعد لزيارتى بعد اسبوع.. صافحه وانصرف.. من جديد عاد يتصفح الواجهات الزجاجية ويستعرض البضائع المكدسة وهو يجهل اكثرها لعدم خبرته فى التبضع.. كان عليه ان يقطع مساحة طويلة حتى يصل الى مقر الجريدة إذ ينوى زيارتهم.. وهكذا اتجه صوب شارع البطحاء إذ لن يتسنى له ركوب

واسطة نقل إلا من هناك والطريق امامه ليس مزعجاً طالما سوف يمر عبر محلات كثيرة واجهاتها تغرى بالتأمل.. فلقد فوجيء انها تكتظ بهذه البضائع التى لم يكن الحصول عليها هينا مثل أنواع الساعات والعطور والمجوهرات والبدل وغيرها من الملبوسات الافرنجية والمنتجات الالكترونية.. ولكنه تكدر لعدم عثوره على مكتبة عامرة بالكتب التى تجذبه شأن مكتبات شارع البطحاء التى يوجد فيها امهات الكتب الكلاسيكية التى ترجمت الى كافة لغات العالم.. انها نعمة لا يحس بها إلا من يقدرها حق قدرها وقفزت الى ذهنه كلمة مباغتة.. المستحيل.. ماذا تعنى يا ترى.. ماذا يعنى مدلولها بالنسبة له؟ الا يظفر ببغيته فى الحياة.. ان تقف الظروف ايضا دون تحقيق ما يريد؟ ولكن ما هى الظروف ايضا ومن الذى يقدرها..؟ الله خلقنا حتى نؤدى رسالة فى هذا الكون .. ان نتجنب الاضرار بالآخرين ، ان نحقق الارادة الإلهية فى إعمار الدنيا وليس هدمها أن ننشر المثل العليا.. أن نجعل الحياة نزهة نتبادل فيها الحب والمعرفة بأن نكون عونا لعمل الخير والابتعاد عن الشرور.. عشق الحياة والذات قد يمتد إلى عشق الله والتصوف كما حدث لرابعة العدوية التى يقال انها اسرفت فى حب الخالق عز وجل ولهذا وضعت كل صبوتها فى حب الذات الإلهية.

ثم قضت وهى مبتسمة لهذا العشق الذى ملك عليها كل ذاتها . وحب الانسان لآخر قد يرتفع من انحدار المحسوسات الى شفافية وذرى المثالية كما فى حب قيس وليلى والرواية التى حزن من اجلها قد يحاول كاتبها ان يجعل ابطاله من شهداء الحب.. وهناك أمثال لهما بالآلاف فى التاريخ القديم..

كان قد اقترب من شارع الصحافة كما يدعوه مع انه يعج بمحلات قطع الغيار والمعدات الصناعية والكهربية ابعد ما يكون عن الفكر والصحافة ، ومضى يتوغل محاذراً حركة عربات الأجرة وعربات النقل وطوائف العمال الذين عادوا من ورشهم بعد اقفالها فى ذلك الحين.. وحالما ألقى التحية على صديقه سليمان انتزع الآخر ابتسامة شاحبة قائلاً: تعال، اقرب منى.. فاقتعد الكرسى المجاور له وهو يتوجه له بكل جوارحه .

تذكر الشجيرات الصغيرة فى اعماق الصحراء.. انها لا ترتوى من الماء ومع ذلك ترنو نحو الأفق باستماتة.. والمشاعل من حولها تنتقل بين الايادى الخفية يلفها الضباب المجهول.. تخرج من اعماق الأرض القاحلة فى تلك المتاهات الداكنة.. فهل الصحراء ارض الميعاد لليهود الأنجاس.. يتطاولون على الانبياء بينما الفراعنة يسلخون جلودهم فلا يرتدعون.. مع ان النبى موسى انقذهم من بطش فرعون فى سيناء ومع ذلك يحاربون الله والانبياء المرسلين لأن ذلك ديدنهم الفسق والفجور.

(٨)

قال له سليمان بصورة مباغتة :

- اين شنطتك.

تساءل باستغراب: لماذا؟

أجاب بحدة: لماذا.. لأنك اطلت المكوث عند خال سلطان حتى نسيت أن لك أخاً هنا.

تلعثم ليجيب: كلا.. لم أنس.. انما تعرف.. انني أميل الى الفوضى فنهض قائلاً: - اذن.. قم لنحضرها الآن.

قال ذلك وقد وقف استعدادا للانطلاق.

تبعه وهو يغمغم.. الا تخشى ان يغضب مني صديقي سلطان؟

سحبه بقوة من كمه قائلا: - لماذا يغضب وهو مثلك ضيف على خاله .

سارا معا حتى اتجها الى موقف العربات حيث ركب إلى جانب سليمان الذى بدا عليه التصميم واستمع إليه ناصحاً :

- الرجل قام بأكثر من الواجب نحوكم.. فلماذا تثقلون عليه .

غمغم - انت أخ كبير لى.. ولن انسى لك هذه النصيحة . اخترقا شارع البطحاء متجهين شمالاً حيث تقع حارة المربع.. وحين بلغا المنزل ودقا الجرس خرج لهما الشيخ الذى حاول ان يثني عامر عن اخذ حقيبته لولا توسل سليمان بأنهم على موعد مع شخصية كبيرة سوف تسند عملاً جيداً إلى عامر.

وهكذا عادا إلى شارع البطحاء واستمر سليمان فى قيادة العربة حتى دخلا حارة يبدو انها شعبية سماها له بانها (العود) ولاحظ انهم يسيرون بمحاذاة سور حجرى اخبره سليمان انه سور المقبرة.

واضاف ضاحكاً: - سوف تدفن فيها بعد عمر طويل.

فرد عامر: - الاعمار بيد الله.

وما لبثا ان دلفا الى زقاق صغير ممتد فأوقف سليمان العربة بالقرب من منزل طليت جدرانه بالجص حديثا كما دهن اسفله باللون الاخضر قائلا :

– هذا منزلنا المتواضع.

وترجلا سوياً ثم حمل سليمان الحقيبة وعالج فتح الباب الذى اتضح انه يفضى الى سلم جانبى ومدخل ارضى.. وتبعه فى صعود السلم حتى بلغا غرفة فى اعلى السلم ودخلها قائلا له:

– اخلط.. يا خوى عامر.

ارتقى خلف سليمان درجا لولبيا أفضى بهما الى ساحة صغيرة بقربها باب حديث الطلاء فتجاوزه الى داخل الغرفة.. كانت مربعة الشكل اختفت ارضيتها تحت سجادة قطنية كبيرة بينما توزعت المساند جدرانها السفلية، وكذلك طرحت بعض المراكى التى توضع لإراحة الذراعين بينما يتوسط الموقد أركان الغرفة.. كان الرجل قد سبقه إلى فتحة الباب حُيث أراح الحقيبة فوق صندوق فى عمق الغرفة قائلاً بترحاب :

– تفضل يا استاذ عامر.. حياك الله.

دلف خلفه بعد ان نزع نعاله ومضى حتى اقترب من مكان الحقيبة واراح قدمه فى جلسة قرفصاء.. وسمعه ينادى.

– هات القهوة يا على.

من بعيد سمع صوتا لصبى.. يجيب:

– سم.

بدأ على مضيفه الحيرة بين البقاء الى جانبه أو مغادرة المكان، ولكنه لم يلبث ان قال وهو يمضى نحو المدخل:

– عن اذنك.. حتى لا يتأخر غداءنا.

قال مسايراً: ـ تونا خير.. ووراك عجل.

فتضاحك وهو يجيب: ـ انت لا تعرف عادتى.. بعد الغداء أتمدد للقيلة.

تقابلا فى المدخل وسمعه ينبه الصبى.. سلم على عمك ثم اسقه القهوة..

وسمع الفتى يلقى التحية ويتقدم نحوه وهو يحمل دلة القهوة ويضع الفناجين على الأرض حتى يصافحه.

كان في الرابعة عشرة من العمر فاتح اللون في سمرته نحيل الجسم يرتدي ثوباً ابيض ويضع طاقية على رأسه.. رحب به وقدم له فنجان القهوة باحترام واستمر واقفا بعد ان عاد خطوات الى الخلف بعد انحناءته رجاه ان يجلس.. فأبى قائلا:

لا .. ما يصير.

مضى يطالع جدران الغرفة فإذا بها لا تخلو من الشقوق.. تنبه الفتى الى نظراته فعلق قائلا: ـ

– البيت ليس بالجديد.

هز رأسه موافقا واجاب.. هكذا اكثر المنازل في هذه المنطقة .

فأضاف: ـ لان المقبرة هنا .. قديمة..

سمع من ينادي وهو يهز الباب الخارجي فقال الفتى.

– طيب.. ثم وضع دلة القهوة والفناجين ومضى منحدراً السلم إلى اسفل المنزل متسارعا ثم عاد بعد قليل يرتقي السلم وخلفه اقدام رجل لم ينتبه إلا وقد توسط الغرفة.

كان طويل القامة داكن اللون يرتدي ثوبا قاتما قديماً ، أما وجهه فكان مستديراً تتوسطه اسنان بارزة وعينان جاحظتان.. وشفتان غليظتان ، ألقى التحية وهو يلف غترته على الجزء الأسفل من وجهه ، ثم مد يده مصافحاً ولاحظ انها غير نظيفة وكبيرة ذات اصابع طويلة.. نهض وصافحه ثم عاد فجلس.. ومضى هو إلى طرف الغرفة وجلس بينما كان ينظر إلى الفتى الذي حمل دلة القهوة وفناجينها واخذ يصب له فنجانا جديدا.. في حين ملأ آخر ومضى به نحو الرجل مادا يده به فتناوله منه ودلقه في فمه دفعة واحدة.. قال له الفتى مجاملاً: ـ

– كيف حال شنقافة.

فرد باقتضاب:

– بخير.

من الواضح انه عامل او أجير لا يميل إلى الكلام.. ومع ذلك فقد قال له الفتى وهو يستعيد منه الفنجان الذى هزه امامه:

– خلنا نشوف.. دخانك.

فهز الرجل رأسه وقد افترت ملامحه عن ابتسامة مخيفة قائلاً بصوت مبحوح:

– لازم تخلى الرجال يعرف سرّنا.

عانده الفتى باصرار : ـ ايه.. بالله تحرك.

قام الرجل إلى مدخل الغرفة حيث الارض التى تخلو من السجاد.. ورآه يحرك اصبع ابهام رجله الكبير ناخزاً الأرض يحكه بها فإذا بخيط من الدخان الاصفر يعلو فوق قدمه وينبثق من اسفل ليراجع بعض الدم.

دهش لهذا الذى رآه وقال متسائلاً:

– من أين جاء الدخان؟

فطوح الرجل بيده مجيبا وهو يهز برأسه.

– الله اعلم.

ضحك الفتى وهو ينظر إلى الضيف معلقا:

– عنده سر.. ما احد يعرفه.

سمع صوت نباح كلب قرب المنزل فعلق الفتى .

– كلبه يناديه .. اسمعه.

نهض الرجل قائلاً: ـ

– عندكم شيء.. والا اروح؟

فأسرع الفتى الى الخارج قائلا: ـ

– تعال الحقنى.

وهبط الرجل فى أثره حتي بقي وحده مفكراً رأى من امر عجيب هل هى من الكرامات كما يقولون أم انه نوع من السحر.

مقابر الموتى تذكرنا بأن البقاء لله.. كم غيبت الرموس من البشر ملايين لا تحصى ومازال الجن فى الصحراء يقيمون الولائم ويرقصون كل ليلة احتفالا باليوم الجديد.. رآهم يحملون مشاعل الانتصار للحياة التى لا تبلى .

يتخذون من الخرائب مأوى لهم.. والظلام وحده يستر تحركاتهم.. يمرقون بسرعة بين الاقدام.. واصواتهم لا يسمعها سوى الأولياء، بعض الانبياء كانوا يتحدثون معهم، سليمان امرهم بتنفيذ التعاليم السماوية.

قال يحدث نفسه: ـ كم من الاموات لهم وجود في هذه الدنيا اكثر من الاحياء الذين يدبون مثل السائمة.. ليس لهم اثر سوى اعتبارهم من الاحياء.. يملأون فراغا بالجسد فحسب.. يشاركون في مضغ الطعام وافرازه دون المساهمة في صنع خبز الآخرين ولو بقدر ضئيل من الجهد بعض الحكام العرب يشجعون هذه العناصر الكسولة التي كانت في الماضي من الفئة المتميزة من رجالات العلم والبحث والشعراء.

تلك الفئة كانت تنكب في تحقيق التراث وتأليف روائع الفكر والادب متفرغة لهذا الجهد والبذل الكبير بما اعطاها الله من سعة العلم والافق ، ولهذا ادناهم اولئك الحكام وشجعوهم على هذا البذل والاستفادة من عبقريتهم التي ملأت الكتب وانتقلت الى الممالك والدول البعيدة فكانت مصدر فخر واعتزاز .

و فجأة اكتشف رقعة ورق فمد يده اليها وفتحها وشرع في قراءتها (تحت ضوء القمر في اعماق الليالي التي يدلهم أولها فلا تبين الحدقة ولا بسمة العروس ذات الجمال كالبدر.. يخرجون متدثرين بالضوء.. لا يستر اجسادهم سوى نقيع الليل وسلطان الغيب ويلتفون حول الشجيرات الظمأى فيسقونها من شرابهم المصفى من عيون الشهد.. هكذا تبدأ سهرتهم بعد عراكهم مع الظلام.. ينفثون من افواههم اعاصير الليل ودمدمة الرياح .. هكذا تقول اساطير الجن ولن نتوغل في خصوصياتهم حتى لا يعبثون بأسرارنا التي غيبناها عنهم في اعماقنا كانت الرقعة ترتجف بين يديه.. تركها وراءه ذلك القبيح الذي فر عندما ناداه كلبه من وراء الباب.. كيف استدل عليه؟ هل تشمم التراب قرب عتبة المنزل ام له مجاهر.. تستطيع اختراق الجدران؟ من الافضل ان يغيب الرقعة في الفجوة التي لفظها الجدار والارضية تعبث بها من الداخل.. اقامت منزلا لها.

تطلع إلى اعلى السقف فرأى اعشاش العنكبوت موزعة في الجوانب وقد شنقت الذباب في نسيجها الذي يتمايل مع اهتزازات الريح الواهنة.

ولم ينتبه الى الفتى وقد فرش سفرة الطعام استعداداً للغذاء.. قال وهو يمضغ اللقمة: ـ

- أريد ان أرى منزل ذلك الرجل.

اجاب سليمان ساخراً : ـ شنقافة؟ انه يسكن بين المقابر.

- أدرى وأريد ان اتعرف عليه عن قرب.

- هل أنت صاحي.

- ولماذا؟

- انه مهبول.. لا تستفيد حتى من كلامه.

- ولهذا اريده.

هز رأسه باستنكار وتسليم قائلا:.. كما تحب على عقب العصر يذهب بك الى مكانه، ولكن انتبه لنفسك منه.. فقد يسحرك!! ضحك متسائلاً:

يسحرني..

أجاب بتصميم: ـ نعم الا تراه يستخرج الدخان من اصبع قدمه.. انه مسكون.. هذا الآدمي القبيح.

- لا تخف علي.. لدى بعض المناعة من التطير.

- لقد حذرتك.. وانت المسئول عن نفسك.

استلقى عقب الطعام على السجادة القطنية ووضع احدى المراكى تحت رأسه وبدأت تتراءى له اطياف النوم.. اشباح من الخطوط الملونة تتقافز متشابكة عجز ان يجعلها اقل حركة وصراعا.. امتد له جسر من القنب ربط ما بين اعلى الغرفة ومقر ذلك الرجل العجيب.. رأى نفسه يرتقي الجسر القنبى ويسير فوقه ببطء لأن الهاوية تحته عميقة جدا بعد ان اختفت القبور منها.. كانت فى اسفل الهاوية بحيرة في اتساع المسافة بين الاسوار زرقاء تتقافز فيها الاسماك الكبيرة ورأى الرجل يلوح له بينما كلبه ينظر اليهما متقافزا دون ان يهز ذيله.

فكر بأن يقفز نحوه ولكنه خشى من الوقوع فى البحيرة العميقة.. حاول ان يتحرك فلم يستطع انما سمع صديقه سليمان يتضاحك فى مدخل الباب قائلا: ـ

- ماذا بك يا عامر.. اتنوى الطيران.

حرك رأسه حتى يطرد النوم قائلا: ـ اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

(٩)

يزدحم مكتب الجريدة بالزوار مساء يوم الخميس باعتباره بداية العطلة الرسمية.. فيتوقف سليمان عن استقبال المكالمات الهاتفية متفرغا لمحاورة الاصدقاء والمؤيدين للجريدة والذين يأتى بعضهم من القرى والارياف المجاورة.. وكان الحديث ينصب فى ذلك المساء عن هذا الوافد الجديد الذى سموه التليفزيون حيث بدأ الارسال التجريبى له.. وكان بعضهم متحمسا له باعتباره نافذة ثقافية فى حين يرى البعض انه سوف يسرق الاضواء من الكتاب ويجعل الناس ينصرفون عن القراءة الجادة.

وكان الفتى الاسمر المكلف بالتخديم اكثرهم انشغالا اذ يطوح بما يستر رأسه ويبقى حاسر الرأس حتى لا يعاق عن امطار فناجين الشاى بالسائل الذهبى ونقلها من واحد الى آخر كما يقوم بالانتقال إلى غرفة الخدمة حتى يتأكد ان الماء فى السخان جاهز لعمل شاى جديد عند الضرورة مردداً وهو ينتقل.. ابشر.. ابشر.. حاضر ولكنه لا ينسى ان يشفط نفسين من السيجارة قبل ان ينطلق فى هذه المهمات السريعة حيث يضع السيجارة فى منضدة سرية تحت احد الشبابيك لا يعرف مكانها أحد.

تغص القاعة بالكتاب المتعاونين مع الجريدة ومجموعة من المثقفين والمناصرين لحرية الكلمة بينما صوت (ليلى) يكاد يخترق سماعة الهاتف تريد ان تعبر عن رأيها ، ورأى المتعاطفات مع الجريدة باعتبارها المندوبة الوحيدة فى الحقل النسائى ولكن سليمان يحاول ان يجعلها تنتظر حتى يتفرغ لسماع ما تريد نقله الى قراء الجريدة.

عامر المشتت تفكيره بين الحلم والحقيقة كان شارد الذهن فى كرامة الرجل القبيح الذى يستخرج الدخان الاصفر من قدمه مقابل ضياع الدم القانى الذى ينساب كأنما هو الذى يشعل فتيلة الدخان من القدم.. ولم يكن متحمسا للخوض

في موضوع التليفزيون لانه لم يكن جديداً عليه فهو باعتباره يقطن المنطقة الشرقية فان شركة الزيت تبث محطتها منذ عدة سنوات برامج تليفزيونية ليست ذات تأثير على شباب المنطقة الذين لا يهتمون بها كثيرا لضعفها بصورة عامة وخلوها من عناصر التشويق ما عدا برامج الاطفال والمصارعة الحرة التى تشد بعض المشاهدين من الرجال لطرافة بعض مشاهدها .

سند الدسم صاحب المطبعة كان اكثر المتحمسين لتشغيل الارسال فى محطة التليفزيون فقد قال مفاخراً انه اشترى ثلاثة اجهزة دفعة واحدة ووزعها فى منزله حتى يضمن أن جميع افراد اسرته لن يحرموا منها، واضاف:

– لماذا يا اخى نحرم أسرنا من التمتع بمثل هذه التسلية البسيطة طالما ان البرامج باشراف رجال يوثق بهم ومعروفين بالاستقامة؟

فعلق نوار وهو شاب فى الثالثة والثلاثين من العمر داكن السمرة نحيف الجسم يعمل بوظيفة حكومية مهملة يمتاز بذاكرة جيدة ويحفظ الكثير من الشعر القديم من اسرة فقيرة شخصيته محبوبة:

– لكم حق يا اهل الدراهم.. فيه غيركم ما يقدر يشترى حتى راديو واحد.

فرد عليه الدسم: ـ كل يمد رجليه على قد غطاه.

فتدخل عواد فى النقاش، وهو شاب فى التاسعة عشرة من العمر يدرس فى نهاية المرحلة الثانوية يهتم كثيرا بالامور السياسية ومنحاز الى الاتجاه القومى متوسط القامة قمحى اللون سريع الانفعال، قائلا: ـ

– هذى خطة لاشغال الناس بتوافه الامور.

فعلق الدسم: ـ انتم ما ينفع فيكم اى خطوة فيها اصلاح وفائدة الناس.. الانتقاد عندكم مثل شربة الماء.. لا تحمدون ولا تشكرون.

فرد عواد: – غايتهم ان يسكنوا اللى مثلك ويخلوه بوقاً للدعاية.

فقال رعشان وهو شاب فى الثلاثين من العمر متوسط القامة نحيف الجسم، عيناه حادتان وأنفه قصير قمحي اللون كث الشارب قصير الذقن له نشاط فى حقل الكتابة القصصية يميل إلى الدعابة والفكاهة:

- من رأيي أن أي شيء يحصل.. يعتبر مكسباً.. وكثر خير اللي فكر بالمشروع.

- اللي عقلهم صغير يبدأون يطنطنون لكل مشروع سخيف وينسون الأمور المهمة.

كان هذا الانتقاد من صالح المنشف شاب في الخامسة والعشرين يدرس في الجامعة ابيض البشرة متوسط القامة يستعمل نظارات طبية من اسرة فقيرة.

وهنا دخل سلطان إلى المكتب رافعا يده بالتحية للجميع قائلا: ـ

- السلام عليكم.

فرد عليه الجميع التحية في حين جلس بقرب صديقه عامر وهو يتنهد ويبدو عليه التعب بينما ثوبه لا يخلو من البقع الحديثة فأخرج علبة سجائره فور جلوسه واشعل سيجارة قائلا: ـ

- يا غلام.. هات الشاي.. والماء تراني عطشان.

تجاهله عامر وان لم يستطع ان يسكت على اتساخ ثوبه.

فقال سليمان معلقا: ـ

- رجال الاعمال ما يهتمون بمظهرهم.

فرد سلطان: ـ تسمع بالمعيدي خير من ان تراه.. توني بعدي ما صرت من رجال الأعمال.

فعلق عامر محرضا الآخرين عليه:

- رجال الأعمال هالايام مايشتغلون إلا على طريقة شدي واقطع لك .

فضربه سلطان على فمه معاتبا:

- اسكت لا تفضحنا يالخسيس.

فقال الدسم متدخلا: ـ إذا ما طاعك الزمن.. لازم تطيعه . فقال رعشان : ـ انا اشهد..

فانفعل عواد معلقا: ـ ارجوكم لا تجيبون السوالف اللي تخلي الواحد يشقق ثيابه عن الفساد.

فقال سلطان ساخراً: - ان شاء الله لمن تتخرجون تصلحون الامور.. بس اخاف تصيرون مثل غيركم.

فرد عواد: - انت وامثالك سبب الفساد يا اخ مع احترامي .

فاحتد سلطان وضرب على كتف عامر: - سمعت نتيجة لقافتك يالخبيث . فتضاحك عامر وغطى فمه بيده حتى يكتم سروره بما سمع من تعليقات تدين صديقه.

فأنشدد نوار قائلا: -

- كم اردنا ذاك الزمان بمدح

فشغلنا بذم هذا الزمان.

فصفق له الحضور بارتياح بينما قالت اصوات : - احسنت يابو النور.. احسنت.

فارتعب الدسم قائلا: - وطوا صوتكم ترانا ماحنا ناقصين مصايب .

- للجدران.. آذان.

- الله يستر على امة محمد.

كان سليمان يحاول ان يتحدث مع ليلى بصوت هامس لولا انه لا يريد ان يفوته مما يقال فى تلك الجلسة من تعليقات.. بينما الشاب الاسمر ويدعى (عثمان) يتحرك بتثاقل ، وقد بدا عليه الاعياء وتصبب العرق من جبينه . نظراته توحى بالاسترحام وطلب الرأفة به ومع ذلك فإنه لم يتوقف عن العمل أو يكف عن سحب نفسين قويين من سيجارته فى ذلك المكان الخفى بين الصحف.

قال سليمان متسائلاً وقد أخفى سماعة التليفون فى حجره.

- الا نؤمن جميعا بالتطور؟

فتلقفت اذنيه اكثر من اجابة تؤيد ما يقول.

- إذن فهذا الحدث البسيط هو فى ذلك الطريق.. وعلينا ان نمتدحه إذا كنا نريد المزيد من الانفراج فى الضغط الداخلى .. صفق الدسم بحماس قائلاً..

- هذا كلام الرجال اللى يثمنون المواقف... وليس الذين لاهم لهم غير الانتقاد والصراخ.

سرح عامر يفكر فى امر ذلك المعتوه (شنقافة) كان قد زار مقر اقامته فأثارت استغرابه هناك.

فقد وجده صنع له ما يشبه الخندق فى حفرة كبيرة يصعب النزول إليه دون مساعدة بينما اخفى فراشه عن العيون ، والذى لم يكن يزيد على حصيرة ومخدة ولحاف صغير لا يخفى القدمين بينما وضع بجانبه قطعة جلدية فرشها بعناية وهى توحى بأنها تخص كلبه المدلل الذى اخافته ضخامته رغم انه وضع فى رقبته ما يشبه الحزام الذى زينه ببعض الفصوص الملونة.. وقد لاحظ احتفاظه بصندوق خشبى وبدلة قهوة وابريق للشاى فى موقد صغير وجرة ماء قربها صحن ودورق ماء.. بينما تغوص الاقدام فى الرمال التى صنع منها ذلك الخندق العميق.

قال له شنقافة وقد كشر عن اسنانه البارزة فى وجهه الضامر وهو يهرش شعره الداكن .

- لا انام فى الليل كثيرا لان الزوار يأتوننى كثيرا.

سأله: ـ هل هم من اسرتك أو أصدقائك؟

لم يعرف الاجابة انما ردد.. زوار.. لايراهم أحد غيرى.

ومع ذلك سأله إذن هم من اهل الارض المخفيين.

فهز رأسه ولم يفصح بالاجابة.

فقال له لماذا لا تتزوج؟

رد بسرعة.. الحمدلله .. تزوجت اكثر من مرة.

سأله: ـ اين زوجتك ؟

فتضاحك بسخرية قائلا: ـ تريد ان تراها.. كلا.. لا ترضى ان يعرفها احد.

أكمل الاجابة: من اهل الارض.. هه؟ -

فزمجر قائلا: ـ كيف تعرف.. انت منهم؟

فرفض الاجابة قائلا: ـ

- أريد أن نكون أصدقاء.. ما رأيك؟

فطوح الآخر بيديه قائلا: ـ

– هل تعرف ان تحفر القبور؟

رد: ـ كلا.. انما اتعلم منك.

فتنهد الرجل وقد ضاق بالحديث ورفع يده الى كلبه الذى انتصب واقفا ينتظر تعليمات صاحبه.

فانسحب عامر من امامه قائلا: ـ

– لنا حديث آخر.

لم يجبه الرجل.. انما سمعه يدندن بأغنية عاطفية تتخللها ضحكات بلهاء رافعا يده اليه بالتحية وقد حسر رأسه عن شعره الاكرت الطويل ذى اللون الرصاصى والذى لم يعرف الحلاقة منذ عهد بعيد.

(١٠)

قال منور وهو يغمض عينيه ويتحسس باطراف اصابعه حجم سيجارته انها والله لقصة عجيبة هذه التى سمعتها من ابى ليلة البارحة . انصبت عليه النظرات كما سمعت بعض الكراسى تتزحزح من اماكنها وقد دنا أصحابها من مجلسه حتى لا يفوتهم سماع كلمة واحدة من حكاياته الطريفة :ـ

اضاف: ـ عموما هى من قصص العشق والغرام التى سادت فى جزيرة العرب منذ مئات السنين.

يقولون بان علاقة غرام ملتهب توطدت بين جبلين احدهما انثى كانا متجاورين فى شمال البلاد ولهذا لم يفترقا قط انما كانا يتطارحان الغرام فيما بينهما طوال السنين الخوالى احدهما اسمه (سنام) والآخر أو الأنثى تدعى (طمية) ويبدو ان الجبال الاخرى لم تعجبها هذه العلاقة فأرادوا الايقاع بين الحبيبين وقد نجحت هذه المكيدة . وبما ان نجاحها اعتمد على خيانة طمية ومغازلتها لجبل آخر فقد غضب سنام وأراد الابتعاد عن حبيبته حتى يعاقبها على فعلتها فأسر الى صديقه الجمل بما انتوى فأخبره انه سيكون رفيقه فى هذه الرحلة، وذات ليلة ظلماء تحرك ركب العاشق وصديقه الجمل الى الجنوب الشرقى مخترقين الصحراء ، فكانا يسيران فى الليل ويتوقفان فى النهار حتى يستطيع الجمل مواجهة الطقس والجفاف المديد، وكانت اكثر وقفاتهما بقرب الابار والمياه الراكدة فى الغدران مما جعل بعض الزواحف تقترب منهما وتحتمى بظلال الجبل عن حرارة الشمس.. واستمرا هكذا لعدة سنوات حتى بلغا موقعاً ما بين الكويت والعراق وهناك هجمت الزواحف على الجمل المسكين عندما تمدد من اجل ان يرتاح قليلا حتى قضوا عليه ولم يتبق منه سوى سنامه مما جعل الجبل يحزن لموت صاحبه ولم يغادر ذلك المكان حتى اليوم. فأصبح الناس يرددون

هذه الحكاية ويقولون حين يسمعون عن حدوث شقاق بين المحبين كضرب مثل عظيم في العشق (زعلت سنام على طمية)..

والسلام عليكم.. قال ذلك ثم نهض مغادرا المكان كعادته بصورة فجائية بينما ثارت التعليقات ما بين الحضور فمن قائل انها اسطورة قديمة بينما رأى آخرون انها مثال للحب الصادق.

فتدخل سليمان قائلا: - هي من قصص الفراق على كل حال ومن يعيد صياغتها فسوف ننشرها له في الملحق الادبي.

فعلق سند الدسم قائلا: - نوار هو أحق الناس بنشرها فأين هو؟ وكان نوار قد اختفى حينذاك كما هي عادته في الهروب.. مما جعل الدسم يقول: انتبهوا يا اخوان ترى العشا عندي الليلة.. والعزيمة للجميع .

تمدد عامر فوق حشية تسبح في ضوء القمر فوق سطح المنزل بعد ان عادوا من مأدبة سند الدسم التي غصت بأكثر الشباب الذين كانوا في مكتب الجريدة. وقد ابلغه سليمان وهما عائدان الى المنزل ان الدسم يقيم مثل هذه المآدب بين حين وآخر لتعميق علاقة الشباب بالجريدة وحتى تكون له كلمة مقبولة لديهم ومكانة مرموقة كما ان من طبعه الكرم.. ولم يعلق عامر باعتبار هذه المعلومات جديدة عليه انما فهم ان مركزه المالي جيد ومطبعته ناجحة.

كان يسمع من بعيد وشوشة اصوات تشبه الطيور الصغيرة وهي تحلق في الاعالي، بينما تبادر الى ذهنه جواره الى جانب مقبرة قديمة تكتظ بمئات الرموس منذ عهد بعيد.

وفي بعض المذاهب فإن الارواح تعاود اصحابها بين الحين والآخر ولا تبتعد عنها كثيرا فما الذي يمنع ان تكون هذه الوشوشة انما هي رفيف اجنحة الارواح العائدة طالما ان البعث سيحدث مهما طال الزمن؟ انها تسبح في فضاء الله الواسع تمطر الاحياء بدعواتها الصادقة بأن يعيش البشر في وئام وانسجام ترفرف عليهم رايات الحب..

الدعوات الصادقة تجد العناء لان البشر يسيطر عليهم شيطان كاسر يتلبس النصح والخديعة فيفجر العداوات ويوقد الحروب حتى ترتاح خساسته ويطمئن الى ان الكون تحت مزرابه فى كل وقت حيث تسيل منه الدماء لا الصفو والمحبة.. قليلة هى نجاحات الخير فى عالم ثارت فيه العداوة منذ الخليقة بين ابناء آدم فتذابحا جهارا لأن وسوسة الشيطان اقوى من الايمان والفتك والشر اصبح هو السائد على هذه الأرض ، رفرفة الارواح بلسم يريح الاحياء والاموات على حد سواء انها مثل ذرات المطر.. تسبغ النعمة القادمة والشهقة الناعمة للصحراء قبل سواها فتلوح فى الافق تلك الغيوم السمراء محملة بأسباب الحياة فى هتانها ودمدمة الرعود وسيوف تندلع ثم تهبط الى الارض تحمل الرحمة.. لماذا يتذكر المطر والربيع فى هذا القيظ الزاحف من المرتفعات الرملية التى تسور المدينة البائسة.

الربيع هو عرس الصحراء ذات الواحات حقا ولكن ليس دائما طالما ان الماء يشح فى السماء فلا تنهمر دموع الغيوم الحبلى وانما تكنس به الاماكن البعيدة التى لا تستفيد منه مثل الوديان القريبة انما فى الارض القاحلة.. الواحات تفتح ذراعيها لكل هتون مهما كان عسير الندى.

العيون تلتقط مشهد المراعى باحتفال وابتهاج وها هى النجوم مرصعة فى كبد السماء تتغامز فى جذل وانتشاء فى تلك القبة الزرقاء تتقافز تارة وتتهامس تارة أخرى، صمت المقابر التى يحرص شنقافة على ان يجعلها هادئة حتى من فحيح الزواحف وانطلاقة الجرذان من تلك الحفر التى يصنع منها منازل له.. انه يطاردها ويسلط عليها الجن حتى يمحقوا ارواحها الكريهة.. فالحركة هى عماد الحياة وليس من كائن إلا ويتحرك فى موقعه حتى وهو نائم.

خيل له انه سمع وقع اقدام تسير ليست ببعيدة عنه وكان يعرف ان السطوح تقسم الى عدة مواقع يفصل بينها جدار بحيث يتسنى ان تنام اكثر من اسرة أو يصبح الابناء نياماً بعيدا نوعا عن والديهما.. وبعد حين سمع صوت المرأة تحادث الرجل قائلة: ـ انت لا تنام بسرعة فما الذى يشغل قلبك ؟.

أجاب: ـ متى جاءني النوم استسلمت له.. ولا يشغلني سوى العمل .

تساءلت : ـ عسى ان لا يكون عقلك يفكر بامرأة اخرى.

أجاب زاجرا: اسكتي يا امرأة فأنا لا افكر بالنساء مطلقا .

قالت مصرة: ـ وهؤلاء اللاتى يتحدثن معك بالتليفون ألسن نسا ؟ رد بسرعة: ـ نامي ولا تتعبيني بهذه الاحاديث المكررة.

قالت: ـ انت تعرف محبتي لك.. واستعدادى لقتل من ينافسك علي .

هاجمها: ـ اعرف انك مجنونة.. انما نامي وتعوذى من الشيطان.

علقت: ـ الشياطين تحوم حولكم انتم الرجال.

رنت في ذهنه كلمة (قتل) فهل النساء الرقيقات يتحولن الى قاتلات في بعض الاحيان؟ .

القاتلات لابد ان يكون فيهن صفة الشراسة والعنف ولم يسبق ان سمع بان زوجة قتلت اخرى لمجرد انها تنافسها على رجلها. فهل غيبت المقابر نساء من هذا النوع الدموى.. كيف يجتمع الحب وامكانية البغض حتى الموت في قلب واحد! .

غرق في التفكير دون ان يحدد ماذا يريد ان يتوصل اليه في هذا الخضم. المتلاطم من الافكار التي تهاجمه في وقت النوم بالذات.. هل هذا هو الوقت المناسب للانفراد بنفسه؟ الوشيش لا يكف عن طرق سمعه كأنما بنفسه والزوجان أوقفا حوارهما ولاذا بالصمت بين نائم أو غائب مع عالمه واصوات الطيور الليلية. تجوب بالافق مثل الوطواط لا تستيقظ الا في الظلام.. والدنيا توزع ارزاق المخلوقات ابان الليل والنهار.. قال كائنات لا تعرف الهدوء حتى وهي مستسلمة للنوم.. احلامها تحلق بعيداً دون معرفة السبب.. تقطع في سبيل اثبات وجودها رغم غياب اصحابها في لجج تشبه الموت.. وتذكر ان بعض الديانات الهندية تحتم احراق المرأة مع زوجها عند وفاته فقال في نفسه هل زوجة صاحبه سوف تحرق نفسها عند موته طالما تفكر بقتل من يتجرأ على مزاحمتها في حبه؟

وفجأة وجد سؤالا يواجهه.. أرواح من تلك التى تجوب الوديان؟ أهى ارواح الابطال الاشاوس الذين ماتوا فى القتال ام المجرمين الذين يحتمون فى الكهوف؟

الحياة ساحة شاسعة للقتال.. وليس من الضرورى ان يكون القتال بحد السيف انما باللسان ايضا وكذلك فى الجهد حتى البروز والتألق.

الحب وحده يمتنع عن القتال.. لا يوجد حب حقيقى أخذ بالقوة.. انما يأتى بالعاطفة التى تنضح بالتسامى.. الحب مثل النسيم لا نستطيع ان نغير اتجاهه او نتحكم فى مجراه.. انه يأتى مع هذه الذرات التى لا نشاهدها بالعين المجردة.. لن يضعه متعمدا ولكن بالحظ والقدر.. بالصدفة الرائعة باللؤلؤة داخل المحارة.

والمعذب الذى يصيبه ذلك الداء.. داء الحب من طرف واحد.. كأن يرى تلك التى تأسره وهى تقف فى نافذة ثم يكتشف انها زوجة أو تلك التى يراها ترعى اغنامها فى طرف من الصحراء ان لم يأخذه الولع من صورة فوتوغرافية فى مطبوعة سيارة ، وربما فى صوت يطرق اذنه لاول مرة فيلتهب قلبه مع صاحبة النغم العذب هكذا على جناح فراشة أو نحلة مثل عبير وردة فى بستان.. وتذكر.. صديقه سلطان الذى اولع بعينى تلك الاجنبية الشقراء.. اولع بعينيها الزرقاوين فلا يرى فى ذلك الوجه سوى هاتين العينين اللتين لا تبيحان له بشئ مثل صفحة الماء فى بحر هادئ لا تعرف ماذا تخفى هذه المسحة الغامضة تحتها.. سمك مفترس أم ماء عذب.. ثم قال فى نفسه وماذا عن السحر؟ والسحرة وما يقال عما يفعلونه فى العتمة.

كانوا منذ الصغر لا يحاولون ازعاج من تحتهم.. إنما النساء الكبيرات فى السن لا يمشين إلا وهن يبسملن ويقرأن بعض التعاويذ والآيات القرآنية لاسيما فى الأماكن المظلمة التى يعتقد أنهم يكمنون فيها أو ينتقلون عبرها من زاوية إلى أخرى ، إنما القليل منهم يسمع له صوت خفيض أو همهمة غامضة أما فى أعماق الليل فاصطحاب السراج المضئ ولو قليلا ينصح باستعماله حتى لا يصطدم أحدهم بذلك الجنى المستتر بالظلمة.

إنه فى الحقيقة لم يفكر جديا بضرر هذا الوجود الشبحى قبل أن يراهم فى الصحراء يرقصون ويهزجون لأن القليل جدا من الناس من وقع فى تلك الطلاسم المخيفة.. أحد أقاربه فقط اصطادته جنية.. كان من الرجال المتعلمين ومع ذلك وقع فى الحبائل وترك العمل بل تركوه فى غرفة مظلمة لوحده يتحدث على هواه ، ويأتى بحركات غريبة فأصبح كث اللحية شعره واقف مثل جلد القنفذ ، عيناه أخذتا تميلان إلى البياض ولم يره مبتسما قط إنما مهموم شارد النظرات وكأنما يبحث عن شئ لا يستطيع العثور عليه فى تلك الوحدة.

كان يحترمه فيما مضى فأصبح يرثى حاله وما آل إليه مستقبله المعتم.. قرأوا عليه.. عالجوه بالأدوية والأعشاب ولكن حالته لم تتحسن إنما استمر يهذى ويحرك يديه وأصابعه دون أى معنى محدد.

هكذا استمر فى ليلته ينتقل بفكره من موضوع إلى آخر حتى أوشك الفجر أن ينجلى حينذاك سرقة النوم وغرق فى لجته.

(١١)

كان اليوم الأول فى العمل متعبا له.. ذلك انه اضطر الى الجلوس امام فاصل خشبى ينتظم صالة المدخل ، وقد جهز ليكون مكان جلوس الموظفين حيث يحتوى الجزءان الجانبيان منه على ارفف خشبية تفصل بين مقاعد الموظفين فى حين كان الجزء الامامى منه عبارة عن لوح خشبى مستطيل يستعمل كطاولة للكتابة لامعة مثل الزجاج .

إذ لم يكن يعرف أى من الزملاء معه والذين كانوا خليطا عجيبا من مواطنى الدول العربية وقد ارتاح انه لم يكن بينهم اجانب، كان كثير الالتفات الى جانبيه حتى يسبر ماذا يفعل هؤلاء حين تقدم لهم ورقة خضراء فى الغالب من المراجعين وهم يحتضنون رزمة نقود أو اكياس صغيرة منفوخة كما قدر مليئة باوراق نقدية .

وفوجىء بمن يحدثه وقد ارتكز على حافة الكاونتر قائلا له: ماذا تعمل هنا ايها الفتى ؟.. وحين رفع رأسه وجد صديقه سليمان مع منور يبتسمان له فضحك قائلا: انتما اول زبائنى المفلسين اليوم.. فماذا تريدان ؟

فرد منور منشداً : لكل شىء إذا ماتم نقصان .. فلا يغر بطيب العيش انسان .. ضع هذه الحكمة امامك ليقرأها هؤلاء الموسرون فعلق سليمان: لا تفعل .. وإلا فصلوك من العمل.. فاطلق منور ضحكة مجلجلة جعل عامر يقول له اسكت ايها الاسود ، وهكذا انسحبا من امامه وغادرا صالة المصرف بينما كان يشيعهما بنظره باسما.

فى نهاية الدوام فوجىء بأحد زملائه يقذف له بكومة من الاوراق الملونة كما دفع له بدفتر ضخم قائلا : عليك بتسجيل الارقام فى السجل حتى تأخذ فكرة عن عملنا . فتبسم فى وجهه بما يشبه التكشيرة قائلا فى نفسه: انهم يدربوننى .. فلا بأس من التعليم .. وعكف على مطالعة الاوراق ثم فتح السجل بعد ذلك بنوع من

الفرح وبدأت الارقام تتقافز امام عينيه وهو ينقلها من الاوراق الى السجل ارقام اعياه احصاؤها ولكنه استمر فى التسجيل حتى اوفى كافة الاورق وعندها رفع رأسه ليجد أن الدنيا تدور به بينما ظهره يؤلمه .. تنقل بعينيه يمينا وشمالا ولم يجد سوى عدد محدود من الموظفين بعضهم استسلم للنوم والاوراق مكدسة امامه ففهم أن وقت العمل الرسمى قد انتهى وعليه ان ينصرف طالما انهى ما كلف به ولكن الى اين يذهب ؟ تذكر انه يوجد عمل مسائى أيضا مما جعله ينظرإلى ساعته وعيونه تحرقه قليلا .. بعد ساعتين يبدأ الدوام المسائى اذن فى فترة قصيرة لن تسمح له بالابتعاد عن محيط مكان العمل. سحب قدميه الى خارج المبنى ملقيا التحية على الحارس الذى كاد ينزع عنه الملابس وهو يتفحصه .. جلس على طاولة صغيرة فى مطعم شعبى ليس بعيدا عن مكان عمله وطلب بعض الطعام الخفيف مع الماء الكثير لأنه اكتشف عطشا فظيعا يمتد من فمه الى امعائه. حريق فى جوفه وحريق فى عينيه .

فى المساء .. استدعاه رئيس قسم العلاقات الذى هنأه بمناسبة تعيينه فى المصرف واخبره انه ينوى ان يوكل اليه متابعة مواضيع خارج الفرع لمعرفته بالناس . وقد أكد كلامه بأن اعطاه كشفا يمثل شخصيات مالية معروفة وبعض الشركات والامراء ، حيث ابلغه بأن هؤلاء كانوا يتعاملون مع الفرع ثم اوقفوا تعاملهم لاسباب مختلفة انما بقيت عليهم مبالغ للفرع لم يسددوها مما جعلها تدخل فى حقل المديونيات ، واصبح حسابهم «مدين» فى التعبير المصرفى ومطالبين بتسوية هذه الحسابات عن طريق التسديد المباشر ، ومن الافضل ان يتم ذلك بالتفاهم المباشر حتى لا يضطر الفرع الى اقامة دعوى ضدهم وهو الحل الصعب الذى لا يرغبه المصرف من قبل المحافظة على سمعته فى المجال التجارى.. ونبهه بأن مهمته صعبة ولكنه فى موقف القوى لأنه يتكلم باسم الجهة الدائنة . ولعن فى سره المال واصحاب الاموال الذين يضحون بسمعتهم من اجل تكديس المزيد من اموال الاخرين . وتذكر مايقال عن اهل (الجفرة) اولئك الابالسة الذين يحتالون على المحتاجين ويأخذون منهم مبالغ طائلة من أجل منحهم المال

القليل عند الالتجاء اليهم . انهم يشبهون مايقرأ عن اساليب المرابين اليهود فى الازمان السحيقة الذين يصادرون حتى الزوجات عند عدم تسديد مديونياتهم .

تبا للمال انه خصيم العلماء ورجال الفكر والاصلاح على مدى السنين.. والحياة تفرض على الانسان ايجاد مورد مالى والا فهو من الهالكين البؤساء الذين لا يعتد برأيهم وليست لهم منزلة فى مجتمعهم .. فيالهذه الدنيا من بائسة .

تمدد على فراشه وعيناه تصافحان هذه القبة التى تلد نجومها كل ليلة ترصعهم حولها وتخفيهم منذ الفجر فيادرها من باسقة فريدة وبدأت الاصوات من حوله تتعاظم وتتضح .. فقال صوت نسائى :

– متى تشترى لنا هذا الجهاز الجديد الذى يظهر من يتحركون على شاشته مثل الابالسة ؟

– وما حاجتك به ؟

– أليس هو التسلية ؟

– ضحك قائلا : قد يكون تسليته عليكم .

– لم افهم ما تعنى

اجاب من خلال ضحكة قصيرة ساخرة : والدة الدسم تخفى وجهها حين خروج المذيع على الشاشة .

شاركته الضحكة معلقة : ولماذا ؟

– حتى لا يراها المذيع لانه من الجن والشياطين حسب اعتقادها يا لها من امرأة صالحة .

– بل قولى .. معقدة .. جاهلة مثلك.

– وهل انا مثل عقليتها

– كلكن نساء غبيات .

– المهم .. اسرع باحضار الجهاز ولن احجب وجهى عن المذيع حتى لو كان غولا .

وفكر .. اليس جارهم البشع هو الغول بعينه ذلك المدعو شنقافة؟ وجهه القبيح

.. عينه الحولاء ذات البياض الطالح.. ثيابه الرثة.. رائحته النتنه كلبه المخيف .. أفاعيه الملونة .. ومع ذلك فهم يطعمونه كل يوم .

وتمتم .. الناس فيما يعشقون مذاهب .

تلاشت الاصوات الا من حركات من يتقلبون على اسرتهم بحثا عن النوم الهارب.. وسمع صوت نباح كلاب في زوايا المقبرة فقال في نفسه :

انهم يحاولون ايقاظ الموتى من نومتهم الابدية ويتسلون بقضقضة العظام النافرة .. واحس بحركة بالقرب منه فانتبه الى تبختر قط اسود يرفع ذيله .. وبما انه يتشاءم من القطط السود فقد قرر ان يتجاهله باعتباره حسب ما يقال رسولا من الجن.. كانت عيناه الفسفوريتان تلمعان بحقد.. أو مأ له محذرا فكشر عن مخالبه المسنونة . فكر بالكلب اللعين الذي يرافق ذلك البائس شنقافة فتمنى حضوره. وفجأة قفز القط فوق الجدار وهو يحرك ذيله فتنفس الصعداء من هذا الهروب واغمض عينيه.. وطفق يحلم بليلة سعيدة حتى استسلم للنوم بعض الوقت ليكتشف بأن القط يشاركه فراشه ، تحسس ظهره فألفاه يشخر فقال في نفسه : الجن ينامون في الليل .وبدأ يهذي ويفكر بالارواح الشريرة التي تسبح في سماء المقبرة..

سكان البادية وحدهم استطاعوا تجنب خضوعهم الى غول المجتمعات وهو المال حيث ان حياتهم البسيطة لا تستدعي اكتناز المال انما عطف السماء عليهم يكفي لأن تجعلهم من الموسرين عن طريق تناسل اغنامهم التي تسرح تحت الغابة الالهية في تلك البراري التي لا تعرف الامان.. والجميع متساوون بعد ذلك فالكبير – هو الطاعن في السن – والفقيه من تربى على تحصيل علوم الدين وقلما تجد بينهم من يشذ عن قاعدة الجماعة – القبيلة – لذا فان البدوي لا يتشجع حين ينسب الى الحاضرة انما يفضل – في المدينة – ان يعامل كضيف طارىء عليهم وليس كمقيم بينهم يفهم اساليب اللعبة الحضرية .

سأله سليمان : كيف وجدت العمل في المصرف ؟

اجاب بحزن : سوف اتولى متابعة الديون وهو عمل لا أظن انه يناسبني.

رد سليمان : لماذا لا تصارحهم برأيك .

قاطعه : وهل تراهم سوف يقيمون لرأيى أى وزن .. ان رفض العمل يعنى التمرد على قرار اتخذوه .. وفى هذه الحالة ليس امامى سوى الانسحاب وترك العمل .

تساءل سليمان : وهل قررت اتخاذ هذا الموقف .

- أجاب .. قد يكون فيه احتراما لمشاعرى .. حتى لا أفصل . وهنا دخل عليهما سلطان بهيئته الجديدة البعيدة عن الاهتمام بهندامه فسلم عليهما وجلس وهو شبه متعب فأخرج علبه سجائره من جيبه واوقد سيجارة بصورة سريعة ونفث الدخان باشمئزاز .

قال له عامر بتودد : خير يا سلطان .. واضح عليك الزعل ؟

فأطلق الآخر زفرة من اعماق قلبه ليجيب - كلمة زعل ما تكفى .. انا مرارتى بتنفجر من تصرفات هالعمال .

فتدخل سليمان مستفسرا : طوّل بالك عليهم .. وش اللى صار .

فرد سليمان : لا شىء .. غير الكسل .. انهم لا يريدون ان يشتغلوا فى الحرارة أو الشمس كانهم ولدوا فى اوروبا .. يبحثون عن الظل حتى لو كان احدهم واقفا فى الشمس ليتكوموا تحت ظله من اجل الراحة ..

حديثهم اليومى عن الاجرة وزيادة المعاش ..

قاطعه عامر : وفروا لهم المرتب الجيد والوضع الملائم للعمل ثم حاسبوهم على الانتاج .

فقال سلطان ساخرا : وماذا تريد ان افعل بالشمس .. اطفىء نور الله علينا .. تكلم يا فصيح ؟

- لا .. وانما اذكرك بأنك ذات يوم كنت تنادى بأعلى صوتك بانتزاع حقوق العمال فى قلعتهم الظهران ..

- نعم .. لا أنكر ذلك ... انما تلك كانت شركة كبيرة وانا مجرد متسبب فى اعمال المقاولات مازلت طرّى العود ..

فرد عامر بسرعة وبصوت مرتفع : سوف تبقى هكذا حتى لو كسبت الملايين.. الجشع غرس لا يزول بسرعة .

فقال سلطان محتجا : اتق الله يا صديقى .. فلم اكن جشعا فى يوم من الايام. فتدخل سليمان ليلطف جو الحوار : عامر يقصد ان على الانسان ان ينفذ مايدعو له بادئا بنفسه .

فرد سلطان بهدوء : شتان ما بين الحالتين اللتين ضربهما كمثال ..

فقال عامر : علينا ان لا ننسى مبادئنا ونحن نتعامل مع جميع الفئات لا سيما الفقيرة منها .

فدخل الدسم ليقول بعد ان القى عليهم السلام :

- إن الله يوزع الرزق على عباده فكفوا عن هذه الثرثرة العقيمة .

(١٢)

همس سلطان فى اذن (عامر – بندر) قائلا :

– اريد أن اتحدث اليك ..

تلفت حوله .. كان المكتب كعادته يضم بعض الشباب من الكتاب والمتعاونين مع الجريدة ، ولم يجد حرجا فى التحرك فى اثر صديقه خارجا حيث لقيه ينتظره .. ولم يكد يراه حتى أشار الى عربته الواقفة ليس بعيدا عن مدخل الجريدة قائلا: تعال يا رفيق الدرب .

مازحه (عامر – بندر) قائلا وهو يرفع سبابته بتساؤل :

– اى درب تعنى .. فأنت صاحب دروب متعددة لا تخلو من الخطورة ولست معك فى جميعها خاصة التجارة و ..

رد مقاطعا وهو يضحك : ودروب العشق ؟

نظر اليه باستغراب : لا تدمر حياتى بمغامراتك الجريئة !

أدار محرك العربة وهو يطلق ضحكة عالية .

– لا حياة لغير الجرىء يا صاحبى فى هذه الدنيا .. ان لم تكن سبعا أكلتك الضباع ..

انطلقت بهما العربة بينما (عامر – بندر) يعلق : احيانا تقول الحكمة. رد سلطان بسرعة : لا أعرف سوى الصراحة .. انما المشكلة فى الناس الذين نتعامل معهم .. فأكثرهم يرتدى اكثر من وجه .. تصور حتى الوجوه لها اكثر من تركيبة ولون .

رد صديقه قائلا : من راقب الناس مات هما .

علق سلطان : المعنى هنا يختلف يا صديقى .. مراقبة الناس الاثرياء والاغنياء هى التى تورث الهم .. اما البسطاء فالله فى عونهم .

كانا قد بلغا طريق خريص بامتداده الطويل وانحرافاته المتعددة وحين توغلا بعض الكيلوات انحرف سلطان جهة الشمال مستعملا طريقا ترابيا جعل الغبار يتطاير خلفهما مشكلا جدارا يحجب عنهم ماخلفهم من المرئيات . واسرع سلطان باقفال زجاج النافذة قائلا الغبار مضر للصدر. ومن بعيد شاهدا بيوت شعر متفرقة ذات الوان مختلفة بينما انتثرت الماشية حولها فعلق سلطان قائلا وهو يشير نحوها : تلك وجهتنا .

فقال (عامر – بندر): نسيت ان اسألك ما الغاية من ذهابنا ؟.

فتبسم الآخر قائلا : اصبر .. وسوف ترى ما يبهجك .

– هل تعتقد ذلك .

– وهل احلا من الوجوه الباسمة .

– ياك من صديق ذكي .. لقد عرفتها بالتلميح فالله درك . بدأ يسمعان أصوات دفوف وغناء من بعيد فقال سلطان : الدنيا لا تستحق العيش بدون طرب.

– لأن حياتنا جافة مثل الصحراء .

– ولكنها لا تخلو من سعادة لبعض المخلوقات

– اعرف انها تحتمي بها من جور الانسان وبطشه .

– هل شاهدت معارك اصطياد الارانب ؟

– كلا .. لم يحدث لى ذلك ..

– هناك بعض الناس من علية القوم يحلو لهم مطاردة هذه الحيوانات كأنما يتوسمون فيها العثور على لآلى !

– انه الفراغ .. يبحثون عن أية وسيلة لشغله حتى لو كان فى ذلك ما يؤذى مخلوقات الله البائسة الضعيفة ..

كانا قد شارفا على مايشبه المعسكر .. بضع خيام نصبت بشكل عشوائى تتناثر تارة وتتقارب اخرى بينما ثمة خيمة كبيرة خلت من الرواق ينبعث منها تلك الاصوات الغنائية وقد امتلأت تقريبا بالرجال الذين تناثروا متفرقين فوق ارضية الخيمة فوق حصر او حنابل قديمة بينما عيونهم مشدودة الى مقدمة الخيمة حيث

جلست الفرقة الغنائية المكونة من بضعة اشخاص يستعملون ادوات مكملة لبعضها .

بينما وقفت فتاة هيفاء تتمايل بجذعها وهى تبتسم للجمهور الذى يراقب حركاتها.

كانت فى العقد الثانى من عمرها مديدة القوام وقد اطلقت شعرها الناعم الذى بلغ عجيزتها مثل الحرير تطوح به يمينا وشمالا مع ايقاعات حركة جسدها وصوت الناى الذى يرتفع ويخفت حسب كلمات الاغنية التى رفع أحدهم عقيرته فى ترديدها. كانت رشيقة الجسد ذات عينين سوداوين وأنف صغير وثياب براقة بالخيوط الذهبية ، بينما صدرها البارز يكتظ بالمصوغات البراقة .

وحين دخلا الخيمة منحت الفتاة سلطان ابتسامة عريضة براقة خاصة فهم منها انها تعرفة جيداً بل انها رفعت يدها بالتحية احتفاء به.. بل خيل الى (عامر – بندر) انها زادت من التواءات جسدها الذى شاهده ينتفض كأنما ثمة قوة تحركه بالرغم منها لدناً يتماوج .

أشار سلطان الى زاوية قريبة من الفرقة الغنائية قائلا: تعال نجلس هناك .

تبعه حيث أشار وتربع مثله إلى جانبه وعيونهما شاخصة إلى الفتاة الجميلة التى اتسعت ابتسامتها وعيناها السوداوان مسلطة نحوهما بينما ازدادت بشرتها بياضا وأنفها الرقيق وفمها الصغير لا يكفان عن مسايرة الشفاه التى تتحرك وترسل قبلة هوائية وتنبه (عامر – بندر) ان صديقه اخرج من جيبه رزمة نقود قذفها نحو مكان الفتاة الراقصة فصفق الحضور لهذه البادرة ، واخذت النظرات تنصب نحوهما بينما رفع سلطان يده ليرد على التحيات التى وجهت نحوه وهو يبتسم .. وتقدم نحوهما شاب يحمل ابريق شاى وفناجين فقدم لهما فناجنى الشاى وهو ينحنى نحو الارض بتواضع.. فادرك ان لسلطان علاقة قوية بهؤلاء القوم لم يكن يعرفها من قبل .

فقال (عامر – بندر) فى نفسه: لاشك أن هؤلاء من الرعاة الغجر الذين لا يعرف لهم اصل ولا جذور فى جزيرة العرب كما لا يلتزمون بأية تقاليد اخلاقية ، مطاردين من اكثر الانظمة للإسفاف الذى يمارسونه فى سبيل الحصول على النقود .

وفجأة دخل الخيمة رجل ملثم بحالة عصبية واشار الى الفرقة الغنائية بأن تتوقف وبسرعة هربت الفتاة الى خارج الخيمة وكذلك فعل اكثر الحضور من الرجال الذين تراكضوا نحو عرباتهم فالتجأوا اليها وبدأوا فى تشغيل محركاتها مما جعل سلطان يقول لزميله قائلا .. هيا .. هناك مطاردة ..

وقفزا الى عربتهما وتحركت بهما الى اعماق الصحراء بسرعة وعامر يرتجف مما حدث بينما طمأنه زميله : لا تخف .. نحن لم نفعل شيئا نخشى منه .

وساد ذلك المخيم هرج وفوضى غير معتادة اذ ركض بعضهم الى البهائهم من اجل تجميعها بينما انشغل البعض الاخر فى فك الخيام ووضع المتاع فى مكان واحد. على انهما شاهدا من بعيد مجموعة عربات كبيرة تتقدم نحو المخيم ولا يعرف مصدرها لأنها لا تحمل اية ظاهرة واضحة .

وفجأة اوقف سلطان عربته قائلا :

– ان استمرينا فى هذا الطريق فقد تنغرز عجلات العربة ولا تفلح فى الخروج من هذه الرمال الغزيرة لنموت من العطش او نكون وليمة للنسور فقال عامر ونعود الى اكل الضبان او الارانب البرية أن استطعنا اصطيادها .

فاقترح (عامر – بندر) بأن يعودا من حيث أتيا .

فرد سلطان بتقزز : الموت أرحم من اكل اللحوم المتوحشة ، ثم اضاف بسخرية : – ألا نخشى ان نقع فى ايدى اولئك الرجال ؟

فرد عامر : ليس معنا ما نخشى منه .. فما هى حجتهم ؟

ادار سلطان محرك العربة ووجهها الى طريق المجيء واستمر فى سيره وقد اكتشفا انه لم يبق اى اثر لمقر المخيم ولا تلك العربات .

فقال (عامر – بندر) بتساؤل ودهشة: اين ذهب المخيم ؟ هل إبتلعته الارض فتلفت سلطان الى عدة أنحاء ولكنه عاد ليقول : لا أثر مطلقا . وكانا قد وصلا ما اعتقدا انه مكان مركز المخيم فأوقف سلطان عربته ونزل منها و مازال يتساءل : اين آثارهم ؟..

تبعة عامر الذى اخذ يتجول فى نفس المحيط وهو يلقى بنظراته فى كل اتجاه بدهشة معلقا : ما أروع مقولة المسيح .. من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر.

قال سلطان فجأة : لقد توصلت الى تفسير ما حدث.. فأصحابنا الغجر على علاقة بمن تحت الارض وقد اعتزموا الرحيل.. ولم يجدوا بداً من اختراع حكاية العربات الكبيرة للتخلص من ضيوفهم حتى يتسنى لهم الاختفاء مع الغسق ومواصلة طريقهم فى الصحراء .. فهل توافقنى على هذا الرأى ؟

فشعر (عامر – بندر) كأنما الارض تتحرك من تحت قدميه فقال معقبا : هل تعنى أننا نقف فوق ارض مسكونة بالجن ؟

فهز سلطان رأسه قائلا : انهم فى كل مكان حسب ما نعرف وموقعنا هذا فوق سكناهم .. جعلنا الله خفيفين على قلوبهم .

فتحرك عامر نحو العربة وقد اعترته قشعريرة ألهبت جسده قائلا : هيا لنبتعد عنهم حتى لا نغضبهم .

فرد سلطان وهو يجاريه فى المشى.. لا علينا .. فنحن اصدقاء .

وحين أصبحا داخل العربة استحثه زميله قائلا : ارجوك يا سلطان.. هيا لنمضى من حيث اتينا ..

فانتزع سلطان ضحكة جافة ليعلق: هل انت خائف ؟

– لا أكذب عليك أن اجبتك ..بنعم .. بل اكاد ارتعش ..

فقال سلطان بأعلى صوته : لا نامت اعين الجبناء .

وانطلق بالعربة مسرعا تحدوه افكار متباينة مما جعله يلتفت الى زميله قائلا: ما هو تعليقك على ما حدث ؟

– الدنيا مليئة بالعجائب والغرائب والانسان ليس اكثر من جسد صغير يسيره عقل كبير .. هذا العقل هو قوته الفعلية وسلاحه الفتاك ..

(١٣)

كانت الشمس تميل الى الغروب وقد انتشرت اشعتها .. الارجوانية فوق رؤوس التلال الرملية عاكسة ظلالا تشبه المردة المزمجرة وقد طوحت بقبضاتها المفتولة التى تحمل سيوفا تلتمع على مرابض الرمال الناعمة وكأنما تذكر العالم بما حدث فوق هذه السهوب والوهاد من معارك طاحنة قبل مئات السنين ..

قال سلطان وكأنما تذكر أمرا كان قد نسيه :

– ولكن .. كيف سأراها مرة أخرى ؟

أجاب (عامر) دون مبالاة : احمد ربك انك تخلصت منها .

تنهد ليعلق : ومن قال اننى فرح بهذه النهاية ؟

تشاغل عنه عامر فى رؤية هيبة الغروب الذى يكسو التلال المحيطة بالمكان بنوع من الرهبة والغموض .. فتنهد ليقول : .. كم هى رائعة رؤية رحيل يوم آخر من حياتنا !

– تذكر ان الايام اعمال تسجل وليست ارقاما تعدو .

– وماذا حققت اليوم ؟

– لا شيء .. انما علينا ان نختتم هذا النهار بعمل طيب .

– ليس افضل من وداع النهار من الصلاة في البرارى .

– صدقت والله .. العمل الصالح لايزول مطلقا .

أوقف العربة فى سهل متسع وهو يتطلع الى الافق الادهم قائلا :

لنتوضأ من هذه التربة الطاهرة ان شاء الله .

وبدآ يتيممان صعيدا كل فى جهة حتى اكملا الوضوء ثم اقتربا من بعضهما ليوديا الصلاة جماعة .. وبعد أن فرغا منها اكتشفا ان طيرا يطاردهما وينظر نحوهما باستغراب ..

فأشار اليه عامر متسائلاً : يبدو انه عطشان .

فضحك سلطان معلقا : لا تخف عليه .. انه يشم رائحة الماء من بعيد كما نشم نحن رائحة النساء ... فهيا ننطلق ..

وركبا العربة من جديد حيث تحركا فى اتجاه المدينة وهما يبتعدان فى تفكيرهما عن بعضهما ..إذ لكل واحد منهما عالمه الخاص وقد امتدت من حولهما سهول الصحراء الجافة برمالها الوردية الهاجعة وهى تنتظر نسمات الهواء حتى ترحل وتتحرك بانقياد ، ولسبب ما قام عامر بتنزيل زجاج النافذة التي الى جانبه ثم قام بإخراج جزء من وجهه وأرسل بصره الى الخلف حيث كان معسكر الخيام يتراكم هناك حين مجيئهم فتراءى له انه شاهد المخيم كما كان من قبل.. حملق من جديد حتى داخلته رعشة غريبة .. فاستل بصره وهو يبسمل ثم رفع زجاج النافذة واستقر فى مكانه مرددا فى سره (ان الله على كل شىء قدير) ثم اغمض عينيه وسرح مفكرا حتى شده سلطان الذى اشعل سيجارة واخذ ينفث دخانها فى وجهه قائلا : لم تقل لى .. كيف سأراها ثانية ؟

فانتزع ضحكة ساخرة ليجيبه : – سوف تلقاها فى أى وقت طالما أن اخواننا الجن يحتفظون بها .

– ماذا تعنى ؟

– اذهب الى احد الذين يفكون طلاسم الغيب حتى يرشدك الى ماينبغى عليك عمله ..

وران عليهما صمت بعد ذلك حتى بلغا مبنى الجريدة .. فترجلا دون ان يتفوها بكلمة ودخلا المكتب رافعين ايديهما بالتحية الى مجموعة الحضور الذين تناثروا على الكراسي في ارجاء المكان . وكان سليمان اول من تكلم موجها اليهما الكلام قائلا وهو يضحك : اين ذهبتما .. ايها الشقيين .

ارتميا على كرسيين قريبين منه ورد سلطان قائلا بتذمر :

– ذهبنا الى الصحراء .. فلفظنا الظلام .

فرد معقبا : الظلام يستر السيئات ..

فعلق عامر بسرعة : وماذا تظننا فاعلين يا اسود القلب ..

فتضاحك سليمان ليجيبه: صحراؤنا تخفى الكثير من الاسرار .

تدخل السامعى قائلا يتذمر وكأنما يحتج على قطع حديث كان يثور بينهم قبل حضور سلطان وعامر .

– يا أخى .. لا تمت موضوعنا بهذه الترهات .

فاعتذر سليمان قائلا: المعذرة .. فتفضل اكمل مابدأت يا سامعى ..

كان السامعى فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره اسمر اللون نحيف الجسد حليق اللحية شاربه قصير تبدو عليه الحدية ويكون اكثر عصبية حين يتكلم فواصل قائلا :

– الوحدة العربية قدر لهذا الجيل لا يستطيع التخلى عنه وطالما هناك قيادات تنادى بها فلماذا لا نبادر الى تأييدها ؟ أليس تاريخنا كله يتمحور حول هذه النقطة منذ فرطنا فى نشر المبادىء وانغمسنا فى الملذات ..

قاطعه كرولى وهو شيخ تجاوز الخمسين من العمر.. ابيض الوجه مليء الجسد كث اللحية : الوحدة العربية تنفى القوميات الاخرى المسلمة ونحن نريد اتحادا اسلاميا يضم كافة الملايين فى مشارق الارض ومغاربها يا أخى ..

فرد السامعى : الوحدة الاسلامية يا سيدى بعيدة التحقيق لانها تتوجه الى اقوام فى بقاع مختلفة من العالم وينضوون تحت لواء حكومات ليست جميعها اسلامية ، ولهذا فهى مستحيلة التحقيق إلا بعد دهور لا نعلم مقدارها . وهنا تدخل الدسم مقاطعا : ارى أن نكتفى بالشعارات الوطنية ونعمل على تطوير وطننا ثم نرى مستقبلا ما هى مصلحتنا فى تلك التجمعات او الشعارات التى نسمع بها .

فرد عليه سامح بانفعال : – هذه هى آراء الرأسمالية الانتهازية .. لا تبحث الا عن مصالحها المحددة ولا يهمها مستقبل الاوطان .. كان سامح شابا جامعيا فى الثامنة والعشرين من العمر ابيض الوجه ذا عينين حادتين سوداوين ،انف طويل قليلاً ، حليق الشارب نحيف الجسد حليق الذقن يتحمس بسرعة وان كان قليل النقاش لانكبابه على القراءة المتواصلة . رد الدسم بوجه مصفر يوضح غضبه من تعليق سامح قائلاً:

– أرنا ماذا تفعل أو تقدم انت وامثالك لوطنكم سوى لعب الورق واحتساء الشاى .

فقاطعة سامح:– شخصياً .. لا أعرف لعب الورق فلماذا هذا الاتهام ايها الرأسمالى البشع .

فتدخل سليمان لتهدئة الموقف حين رأى انفعال صاحب الجريدة – لانريد اتهامات تجلب العداوة .. فنحن نسعى الى بلورة اراء الناس ولانفرض عليهم آراءنا ..

فقال كرولى بارتياح : هذا الرأى فيه الكثير من العقل والاتزان .

فغمر سامح بعينه وهو ينظر الى سليمان معلقا : – سبحان الذى جعل الأضداد على طريق واحد .

فقال السامعى : – الخوف جعل الناس يغيرون من اتجاهاتهم بسرعة، وهنا تدخل سلطان قائلاً بصوت هادئ :–

– نريدها أممية ولكن بشرط أن ينضم اليها اخواننا الجن !!

فضج الحضور بالضحك مما جعل وجه سلطان يمتقع ويصفر:

– ولماذا الضحك والاستغراب؟ أليس الجن يعيشون معنا فى هذه الدنيا؟

فعلق الكرولى قائلاً :– انت تعيش فى عالم اخر ياولدى .. ولمعلوماتك فالجن ارواح وليسوا اجساداً مثلنا .

فقاطعه سلطان :– ولكنني رأيتهم في أكثر من موقف.

رد الكرولى :– أنت إذن مختلف عن بقية البشر لأن من تعامل معهم الانبياء فقط قبل قرون طويلة، سمع صوتاً يقول :– ربما كان يحلم . فنهض السامعى قائلاً يتبرم:– بدأنا بالجد وانتهينا بالهزل . فأجلسه سليمان بإشارة من يده قائلاً:– الى اين يا سامعي.

فرد بفتور :– نبحث عن مجالس الفائدة وليس العبث .. وسايره فى النهوض سامح وسلطان ايضاً مرددين :– بيوتنا .. تنادينا فعلق الدسم :– تخافون من الحريم.

فرد سامح :– ومن قال لك اننا تزوجنا وانجبنا مثلك ؟

قال سلطان :– نذهب للنوم فهذا افضل من سماع بعض الكلام المزعج .

فعلق عامر:– هو على موعد مع أهل الارض الباطنية ..

وعلى حين غرة اقتحم المكان منور قائلاً وقد سمع طرفاً من الحديث: من هو السكنى الذى يتواعد مع الجن؟ فأشار اليه عامر قائلاً:–هذا هو . فجحظت عينا منور معلقاً :– ابعد عنى يا استاذ فلونى يغرى الجن ليأخذونى معهم .

فعلق سلطان:– انتم الاحباش اول من جاء بهم الى ديارنا .. فالجن أصلهم من أفريقيا وليس من ديارنا .

فتضاحك منور قائلاً:– يظهر انك اصبحت تعرفهم جيداً .. فما رأيك أن تكتب بحثاً عن الجن . فسخر منه سلطان قائلاً :– قد أفعل بعد أن احرر محبوبتى منهم فشخصت الابصار نحوه تنتظر المزيد من حديثه لولا انه استمر فى سيره نحو باب الخروج وهو يشير الى عامر بأن يتبعه .

لحق به عند موقف العربات فاذا به يقبض على يده ويضغط عليها بشدة آلمته وكان بذلك يعبر عن استيائه من تعليقاته عليه ، وقد كتم عامر توجعه وصبر حتى اطلق يده.. وكانت المفاجأة تنتظرهما حين ابصرا . (شنقافة) والغجرية يقفان الى جانب عربة سلطان ويحاولان فتحها.

فأسرع سلطان نحوهما فى حين توقف عامر حين لمح عربة اجرة تقف ليس بعيدا عنهما .. فمضى نحوها وقبع بقرب سائقها دون ان يكلمه .. بينما دهش سلطان لهذا التصرف ولكنه لم يفعل شيئا لانشغال فكره بهؤلاء الذين ينتظرونه .

(١٤)

كاد يضل عن طريق المنزل لولا انه استعان بالسؤال رغم ان سور المقبرة يحيط بتلك الحارة من عدة جوانب ، جلس بقرب المنزل وسرح بفكرة بما شاهد قبل بعض الوقت بيد انه فطن الى انفتاح باب المنزل وخروج على منه والذى بادره قائلا: عم عامر .. لماذا لم تطرق الباب او تضغط الجرس ؟

صافحه بسرعة ليعلق : وصلت لتوى واردت الارتياح هنا .

– هل انت متعب ؟

– لقد مشيت قليلا ولكن حرارة الجو اتعبتنى .

فتح له الباب على مصراعيه قائلا وهو يوسع له الطريق :

– تفضل . وارتح فى المجلس يا عم عامر .

تبعه وارتقى درجات السلم المفضى الى المجلس فى الطابق العلوى حيث ارتمى على حشية قطنية ومدد قدميه بارتياح وهو يتنهد ويستعيد أحداث ذلك اليوم بما حفل به من مفاجآت وأطوار غريبة .. إذ اصبح المعقول منغرسا بنقيضه وإلا من يصدق ان القبيح شنقافة يعرف تلك الهيفاء الغجرية الحسناء ؟

ومضى فى مثل هذا التيار من الافكار المتضاربة حتى أنه لم يفطن الى الصبى على وهو يقدم له وجبة العشاء على سفرتهم الشعبية الشبيهة بالحصيرة من سعف النخيل.. تناول طعامه على عجل حتى يستطيع أن يغفو بعد أن شعر بمهاجمة الوسن فى اعقاب اشتداد التفكير على رأسه .. مضى الى سريره فوق جناح السطح فبادره النوم ولم ينتبه إلا عقب أن امتلأ سمعه بحوار الزوجين وهما يتجاذبان اطراف حديث غامض ...

فلقد سمع الصوت النسائى يقول بنوع من الخوف:– لقد رأيتها ترتدى عباءتها وتمشى؟

فتضاحك الرجل ليجيب:- يظهر أن التليفزيون بدأ يؤثر على عقلك يا امرأة.
- أقسم لك انني رأيتها في وضح النهار.
- ولماذا تركتيها تمشى دون اعتراضها؟
- لقد خفت منها حين لم تستمع إليّ وأنا اكلمها.. فقد مضت تخترق الارض دون اهتمام بصوتي وكأنما تتحداني.
- وبعد ذلك؟
- اقفلت عليها باب السطح.. ولا ادرى أين ذهبت عقب ذلك.
- تعنين انها مازالت فوق السطح؟
- هذا يقيني إذا كانت انسية.. ولكني اشك في كونها كذلك.
- يا مسلمة.. نحن قريبين من المقابر؟
- وماذا في ذلك؟
- للذكرى بأن الموت حق.. والآخرة قريبة.
- كلامك هذا لا يطمئنني.. فمازال جسمي يرتعش كلما تذكرت ذلك الموقف.
- نامي.. وتعوذى من الشيطان.. ولن ترين الا الخير.
- انتبه لي فاذا صرخت وانا نائمة فلا تجزع.
- اعوذ بالله من الشيطان الرحيم.. هكذا رددى ثم تنامين بسهولة.

وحين ركز ناظريه في الافق تنبه إلى وجود ما يشبه حزمة الضوء ما بين المقبرة وعنان السماء من التموج الساطع حتى لتحسبه اسطوانة لولبية ملونة من القوس قزح فأنكر أن تكون من تأثير سقوط الامطار لأنهم في فصل الصيف فماذا يجرى يا ترى؟

وتذكر «شنقافة» تلك الشخصية الغامضة ذات الاسنان الناتئة والابتسامة البليدة الشوهاء فما هو دوره يا ترى ومن أين أتى بالغجرية الحسناء؟ . هل هو يغطس إلى اعماق الأرض ايضاً ويغترف معهم واستمع إلى حفيف ثياب بالقرب منه فلما التفت ابصر بالقط الاسود يقفز إلى السور الذى يفصل مكانه عن بقية السطح ناظراً إليه بتكشيرة عدائية صريحة.. فكر بأن يهشه ولكنه خشى من أن

يهجم عليه من ذلك المرتفع ويغرس اظافره ومخالبه الحادة فى جسده.. فعاد ينظر إلى حزمة الضوء البللورية اللمعان فحسب أن بصره يعشى وما يراه ليس سوى طيف من خيال فأسرع بسحب الغطاء حتى ينكر ما حوله.. ومضت برهة من الوقت ظن أنها غفى خلالها لأنه بعد أن حسر الغطاء اختفى كل ما كان يشاهد حتى القط لولا أنها سمع شخيراً بالقرب من خاصرته فادرك أنه يستضيف القط العدائى الاسود بينما عادت الطيور الكبيرة تتراشق فوق القبة الزرقاء التى اضاءها قمر مثلوم يسعى إلى الرحيل هو الآخر حتى يكشف اسرار الوجود فى اماكن اخرى من الدنيا.. ومن اوفر حظاً من قمر بللورى مستدير يجعل البسمة تغزو الافواه والقلوب ترتوى بالنظر الذى يوشى بالبهجة والارتماء فى أحضان الحلم ويتهليل من الخيال الوردى.. واخذته سنة من النوم فغاب عن الوعى وإن كان ذهنه مازال يلتهب بما شاهد فى تلك الليلة.. على أنه فى صباح الغد كان أكثر ما يكون شوقا إلى مقابلة رفيقه سلطان الذى يعرف أنه قد بات فى منزل خاله. فاستقل عربة اجرة نقلته إلى حى المربع وقد استقبله سلطان بوجه متعب من اثر السهر فسأله مباشرة:- مابك.. اراك متعباً؟

رد بسرعة : - كلا... لاشئ.. وانت؟

- اسألك ماذا فعلت مع ضيفك؟

فانتزع ضحكة وهو يهرش شعره قائلا:- تصور انها جاءت من أجل غاية واحدة.

- ما هى؟

- كى تعيد المبلغ الذى نثرته عليها.

- وما علاقة الرجل القبيح بها؟

- شنقافة .. إنه قريبها.

- يا سبحان الله.. هذه الفتاة التى ابدع الخالق فى تكوينها.. قريبة لهذه الكتلة البليدة.

- ومن قال لك هذا.. إنه فقيه وفصيح.. أتدرى أنه بمجرد أن اخرج صفيراً من شفتيه كان كلبه جاثياً بين قدميه.

- إذن فقد شبعت من مرآها.

- كنت اريد أن ادعوها إلى مقابلة زوجة خالى ولكنها افادت بارتباطها مع شنقافة فى عمل مهم.

- لقد رأيت ما فعلت فى المقبرة .. كانوا يرسلون مصابيح ملتهبة إلى الافق. ولكن ماذا تعنى تلك الحزم من الاشعة.. لا ادرى؟

تنهد قبل أن يعلق:- إنهما من حراس الارض كما اظن.

- وماذا تعنى؟

- سوف احدثك عن هذا فى وقت آخر. قال ذلك ثم اخرج علبة سجائره.

سأله:- ألن تذهب إلى أعمالك فى الخرج؟

رد باختصار:- سوف أتنازل عنها إلى شريكى واتفرغ إلى الغجرية.

قال بجزع:- هل هذا معقول يا سلطان.. ماذا جرى لك.. اين افكارك وآمالك العريضة فى العمل الحر والمستقبل؟

رد متأوها:- احتاج إلى أن اعيد النظر فى كثير مما كنت احلم به.

بدأ يحتسيان الشاى الذى احضرته خادمة زنجية ليسأله فجأة:

- لماذا لم تذهب إلى وظيفتك؟

- وهل نسيت أن اليوم عطلة اسبوعية؟.

فضرب جبهته بشدة معلقاً: يظهر أننى بدأت انسى اشياء كثيرة.

تلفت حوله ليتساءل:- ألم تحضروا جهاز تلفاز؟

- بلى.. إنه داخل المنزل.. اتريد أن احضره.

- لا.. لا يحتاج فبرامج يوم الجمعة هزيلة فى الغالب.

- يالك من فتى مؤدب فى الحكم.

- ماذا تعنى..؟

- لماذا لا تقول أن حياتنا برمتها هزيلة المعنى؟.

- ها انت تعيدنا إلى الاحكام المخيفة.

- صدقنى اننى لا أقول إلا الحق.. هناك مجموعة تلعب فى المقدرات والثروة.. والباقى دمى تتفرج عليها.. واحياناً تصفق لها.

فعلق عامر– بندر :– واضح انك قضيت الليل ساهراً.

–حياتنا عبث فى عبث.. ولكن بدون خيار.. قم نتمشى فى البرارى.

فتساءل:– هل تبحث عنها.. هناك من جديد؟

– صرت أعرف بعض تلميحاتها.. فلا تخف عليّ.

– أتصدق بأننى رأيت المخيم منصوبا من جديد مساء الامس.

– ولماذا لم تقل لى؟

– حتى لا اجعلك تعيدنا إليه فى تلك الظلمة.

قال متنهداً: إن اجسامهم تلمع من غير ضياء يا صديقى.

تساءل بانزعاج:– ماذا تقول؟

– صدقنى.. اننا اغبياء بما فيه الكفاية.

فضحك عامر – بندر مردداً:– يا لك من ثائر على كل شئ.

(١٥)

كان سالم الدسم ثائراً في ذلك الصباح بعد أن ابلغه بعض معارفه أن الجريدة نشرت مواضيع فيها جنوح نحو الخروج على اتجاهات الدولة ، وقد كان اقوى تلك المقالات كتبه السامعي بنوع من التهكم والاستفزاز معلقاً على المظاهرات الصاخبة التي اذاعت وكالات الانباء أنها حدثت في دمشق وبغداد تؤيد التقارب بين القيادتين المصرية والسورية التي تسعى إلى وحدة من نوع ما. والدسم لا تعنيه هذه المواضيع التي تقلق راحته بقدر ما يخشى أن تمتنع عن الجريدة الإعلانات التي تمده بها الجهات الرسمية ، والتي تشكل المورد الرئيسي للجريدة وقد نصح بأن يذهب لزيارة الكرولي في ادارته حتى يأمن عدم غضبه بسبب مركزه الحساس.. ومع أن سليمان حاول أن يخفف من ثائرته فقد كان لا يستقر على كرسيه انما يضغط على اصابع يديه بعصبية وكأنما ارتكبت اثماً يعاقبها عليه.

أما عامر فقد كان متعكر المزاج لسبب يجهله بعد أن اغفى عقب تناول الغذاء.. لذا اعتزم أن يذهب إلى مقر شنقافة حتى يرى ماذا يفعل ذلك الرجل.. القى عليه التحية برفع يده وكان الاخر يجلس على حجر كبير بينما أقعى كلبه الضخم تحت قدميه وقد فتح فمه واخرج لسانه الطويل يلهث وكأنما عاد لتوه من مطاردة عنيفة.. فتح الرجل فمه الكريه الذي فقد الكثير من اسنانه النخرة فتسرب لعابه على ثيابه المتسخة والممزقة في عدة مواضع. كان يود أن يصافحه ولكنه لم يأمن من عضة ذلك الكلب المخيف. وجلس هو على نوع من الطابوق الاسمنتي في مقابلة صاحب المكان. سأله مباشرة أين الغجرية؟ فرفع اصبعه إلى السماء وكذلك ناظريه علامة بأنه لا يعرف ، وقد لاحظ عامر تقادح اصابعه بنوع من الشرارات القبسية فتذكر قول سلطان بأن اجساد الجن تضئ بدون كهرباء. ولكن شنقافة لم

يلبث أن سار نحو غرفته بخطى سريعة وبعد أن خرج من الغرفة كانت تسير إلى جانبه شاه صغيرة زاهية الالوان ذكرته بعنزة شقيقته الصغرى التى اولعت بها حتى لتحاول أن ترقدها معها فى فراشها. على أن الشاة تلفتت قليلاً ثم عادت من حيث اتت مما جعل عامر ينساق بالرغم منه إلى ملاحقة أثرها إلى الغرفة التى خرجت منها عقب أن استقر شنقافة فى مكانه.

كانت الغرفة معتمة بعض الشئ فلم ير العنزة وانما خيل إليه. أنه يرى امرأة تعطيه نصف استدارتها وهى تعكف على تمشيط شعرها الطويل وقد وجد شفتاه تتحركان بكلمة «قمل» ذعرت الفتاة حين سمعت صوته وغطت صدرها بجدائل شعرها وهكذا اكتشف انها عارية الجسد فخجل من وقفته.

وانسحب بعيداً عن مدخل الغرفة وعاد إلى مكانه ولم يلبث أن اكتشف جلوس القطة السوداء تحت قدميه وهى تهر فاستعاذ بالله من الشيطان فى هذا الحضور الذى لا يرغبه. وبما أنه شاهد رأس الرجل وقد استقر على صدره مما جعله يعتزم الرحيل فنهض ومشى بين رموس المقبرة حتى وقف أمام قبر مدروس ، وقد انمحت معالمه فسرح بفكره يحاول معرفة كم مضى على دفنه. وفجأة رأى القبر يهبط إلى أعماق الارض مخلفاً فوهة فجعلته المفاجأة يعود إلى الخلف وكأنما خشى أن تنهار الارض بالمكان الذى يقف فوقه . وقد اكتشف أن شنقافة يقف خلف مباشرة ويحرك يديه بطريقة ملفتة للانتباه بل ازداد عجبه حين رآه يركل القطة ويلقيها داخل فوهة القبر..

فأوجس خيفة من تصرفات الرجل واعتزم الابتعاد بأسرع وقت ممكن وحين ابتعد بضع خطوات التفت إليه فرآه يفتح فمه من جديد ولعابه يسيل على صدره مبتسماً له ملوحاً بيده فى حين وقفت العنزة الزاهية اللون فى مدخل الغرفة تراقب تحركه. كانت القشعريرة تحرك جسده الذى رآه ثقيلاً لأول مرة ولم تكن قدماه لتقويان على حمله والسير بسرعة إنما أحس بأقدامه تغوص فى الارض وكأنما تلتصق بها. وقد تنفس الصعداء حين وجد نفسه فى مواجهة باب المنزل إذ بدأ يلتقط انفاسه المتلاحقة.. جلس على حافة العتبة لمدخل المنزل وشرد بفكره بعيداً

ليستعرض هذا الذى واجهه خلال اسبوع واحد منذ وطئت قدماه هذه المدينة واختلط فيها الحلم بالواقع لاسيما فى هذا المحيط ما بين المنزل والمقابر . وقد اعتزم فى نهايتها أن يبحث له عن سكن جديد لعله يرتاح من هذا الكابوس المتلاحق. ودفع بقدميه نحو الشارع حيث اشار إلى عربة اجرة ثم اعطاه عنوان مقر الجريدة بينما قبع هو فى مؤخرة العربة ينظر إلى ما يمر به ولا يرى شيئاً.

قابلة الدسم وكان عجلاً كعادتها فلما اخبره برغبته فى اكتراء مسكن اشار إلى مكتب قريب قائلاً:– إنه سوف يحصل لك على ما تريد. وحين تنبه صاحب المكتب إليهما ابتسم لتشجيعه على الاقتراب بل قدم له فنجاناً من الشاى.. سأله عن نوع السكن الذى يريد.. اجاب بسرعة.. غرفة واحدة فقط..

فتساءل الرجل:– ألا تنوى الزواج فتأخذ منزلاً يكفى حاجتك مستقبلا؟

فتضاحك بعفوية:– لا تأتى على ذكر الزواج الذى لن يحدث إلا بعد عمر طويل ياأخى.

– كما تشاء.. لدى ما تريد وهو قريب جداً.. ورخيص.. وناوله مفتاحاً قائلا:– إنه فى العمارة المقابلة.. فاذهب لرؤيته ..

سوف أفعل ولكن ليس الآن انما احجزه لى.

أجابه: طالما انت من اصدقاء الشيخ الدسم فسوف افعل عن طيب خاطر.

– ولكن ماذا عن الايجار؟

– لا تشغل بالك.. وبعد سكناك نتفاهم بحضور الشيخ الدسم.

– ولكن ليس لدى متاع سوى هذه الحقيبة.

– هذا من شأنك ولن نتدخل فى خصوصياتك.

نهض قائلاً:– سأترك عندك الحقيبة.. فأرجو ارسالها إلى المنزل.

– لا بأس سوف أفعل كما ستجد زجاجة ماء هناك..

شكره على هذا الاحتفال به وصافحه متجهاً إلى مقر الجريدة حيث استقبله سليمان هاشاً لمقدمه ومتسائلاً اين ذهبت؟ اخبره بما فعل فاستغرب اعتزامه الرحيل. ولكنه اقنعه بأن سلطان سيشاركه المنزل.

اقترب منه الدسم قائلاً:- إن شاء الله انت اعقل هؤلاء الشباب ولهذا اريد منك أن تكتب ما يوضح وجهه نظرنا فيما تناوله زملاؤك . رد باقتضاب:- قد لا يعجبك ما أكتب.

- سوف ارسل إلى مسكنك كافة ما تحتاج إليه حتى تكتب بتعقل ودون تأثير منهم.

تدخل سليمان لطمأنه عامر:- لا تقلق .. سوف اتعاون معك.

فهدأت نفسه قليلاً من هذا العبء الذى ألقاه عليه صاحب الجريدة..

انتظر مجئ صديقه سلطان حتى وقت متأخر ولكنه لم يحضر مما جعله يقرر الذهاب إلى مسكنه الجديد.. فاستأذن من صاحبه سليمان ومضى فى طريقه إلى تلك العمارة والتى وصفها له صاحب المكتب العقارى قبل ذلك . وجد الشقة مفتوحة.. انكر أن تكون هى المقصودة لذا أعاد اقفال الباب وادخال المفتاح الذى يحمله فى القفل فانفتح.. تنحنح ودخل الشقة كانت بمثابة غرفة واسعة وجدها مفروشة بالسجاد الثمين بينما وزعت المساند على كافة جوانبها وفى طرف منها سرير فوقه حشية قطنية لفت بالجوخ الفاخر وقد غطس جسمه حين جلس عليها. وكان يتسلل إلى الغرفة هواء بارد من كوة فى اعلى السقف إلى جانب نجفة يلتمع فى جوانبها الكريستال وذهب لرؤية المطبخ فإذا به مكتمل بكل ما يحتاجه من ثلاجة وفرن وأوان وارفف ودواليب مليئة بالقدور والاطباق المنوعة.

ووجد عجوز تعمل فى المطبخ تقلب اللحم والبطاطا على زيت يغلى.. سلم عليها وسألها من تكون؟ .

أجابت: أنا مرسلة من والدتك حتى أخدمك فلا تقلق.. ثم ذهب إلى اطراف الشقة فوجد عدة غرف صغيرة يوجد بها سرير واحد فأخذ يفكر بالايجار الذى سيكون مرتفعا وهو على عكس ما اتفق عليه مع الرجل العقارى.

ولم يجد خياراً فى ذلك الوقت انما عاد يفكر بالعجوز التى ارسلتها أمه التى توفيت منذ صغره.. فمن تكون؟

سألها.. فأجابت أنت لا تعرفنى وأنا من جيرانكم فى الحارة وليس لدى أبناء لأننى لم اتزوج.. وأنت ابنى وزوجى فى ديار الغربة.. فاستنكر اضافة انت زوجى لأنه لا يحب هذه الكلمة.

وجد مشجباً فى الغرفة فخلع جزءاً من ملابسه وإذا بالعجوز تأتيه بملابسه الداخلية التى يستعملها داخل المنزل وهى بمثابة سروال طويل وفانيلا طويلة الاكمام.. وعقب أن جلس مباشرة وجد أن المرأة تحضر له ادوات الشاى والقهوة وتنسحب دون أن تكلمه.. اخذ يهز رأسه غير مصدق هذه الحياة الجديدة مع عجوز لا يعرفها.. أتراها تريد تدليله حتى يعتاد عليها ولا يستطيع فراقها؟ أم هى العناية الالهية التى ارسلتها له.

هكذا كان يفكر بينما هو يحتسى الشاى ويرتشف القهوة.. كانت شقته انيقة نظيفة ومرتبة وكأنما يقطنها اناس مستواهم الحضارى مرتفع جداً وهذا ما جعله يحسد نفسه ويتمنى أن تستمر هذه الوتيرة إلى الابد وإن كان الشك مازال بداخله. اخبرته العجوز أنها وجدت فتاة تنظف الشقة وهى التى فتحت لها الباب وسمحت لها بالدخول مما ضاعف من ريبته وتكالب افكاره خاصة بعد أن اكتشف وجود جهاز تلفزيون قريباً من سرير النوم.. ولايدرى كيف هجم عليه النعاس فنام فى مكانه.. ولكنه يتذكر أنه بعد منتصف الليل جاءه من يوقظه من نومه ويساعده على الانتقال إلى سريره.. كانت فتاة حسناء ذكرته بالغجرية.. بل يعتقد بأنها الغجرية بالذات فقد داس على شعرها الذى انسدل حتى الارض وتمسك هو بجديلة منه عندما هم بالقيام.

وكانت هى تبتسم فتبين أسنانها اللؤلؤية بوجهها المورد كما وجه القمر فى اكتماله.

(١٦)

يقينا إنه يعيش فى جنة أو روضة من رياض الخلد فى الفردوس.. فمن أين له هذا المنزل الباذخ رغم صغره وهذه المرأة تقف على رأسه لتخدمه وتلك الفتاة الكاعب ترعاه فى ليله الطويل.. الليل الذى كان يغشاه فيه الشياطين والكوابيس ووجه شنقافة القبيح ذى الاسنان النخرة واللعاب السائلة والقطة المخيفة؟ حقا إنه يحلم.

ولا يعيش فعلاً وهكذا نام وأحلام اليقظة تربت على قلبه وكتفيه وكامل جسده المتوثب لضم فتاة جميلة إلى سريره هى تلك الغجرية.

ذهب فى الصباح إلى عمله ومن ثيابه تفوح رائحة العنبر.. زملاؤه اخذوا لا يبتعدون عن مكانه من أجل شم تلك الرائحة الزكية.. حتى مدير الادارة استدعاه وحثه أن يحضر له مثل هذه الرائحة مهما كان ثمنها.. ادخل يده فى جيبه واخرج زجاجة ناولها للمدير ثم انصرف.

سائق عربة الاجرة تنازل عن اخذ ثمن المشوار من أجل تلك النشوة التى أحسها وهو يجلس إلى جانبه.. جاء إلى المنزل بالرائحة الجديدة فاكتشف أن الرائحة تنبعث من كل الاركان فكادت تسكره.. وقدمت له العجوز اطباقاً مختلفة من الطعام لم يذق مثلها فى حياته.. وحين قام متثاقلا من فرط ما أكثر من الطعام رنا جرس الباب واخرج صوتاً موسيقياً لم يألفه . عادت العجوز لتخبره بأن رجلاً يريده.. ذهب إلى الباب ليجد امامه شنقافة بابتسامتة الكريهة وملابسه الرثة يقول اريد طعاماً لاننى اكاد اموت من الجوع ، وكانت أسرته المكونة من كلبه وقطنه وعنزتها يقفون إلى جانبه .استدعى العجوز وقال لها: اطعميهم جميعاً

كل يوم فكاد شنقافة أن يلثم يده لولا انه سحبها من امامه بتقزز.. وامتد «سماط» الطعام امام باب الشقة وحوى جميع الاصناف وقد جلست العنزة فى حضن العجوز التى أخذت تطعمها وهى تقبلها. فى حين وضع صحن متوسط ملئ باللحم الاحمر إلى الكلب الضخم وصحن اصغر منه إلى القطة السوداء مع وعاء فيه حليب دسم.. ولم يكن يجلس بينهم عامر انما اكتفى أن شاهدهم من فتحة مفتاح الباب يهمهمون فيما بينهم ويضحكون وقد سره ما رأى واخذ يربت على بطنه لارتياح الطعام فى جوفه.. ثم ذهب إلى سريره وتمدد عليه حتى يهنأ بنومة القيلولة التى قيل إن فيها فوائد لا تحصى للجسم..

وكان يفكر بصديقه وحبيبه سلطان.. ترى أين ذهب.. هل مازال يبحث عن الغجرية الحسناء؟ ياله من عاشق متيم سوف تكتب قصائد عن هذا الهوى الكاسح.. وتذكر الدسم الذى كان ينتظر منه أن يكتب عن السياسة العاقلة التى لا تندفع مع اهواء العامة من الناس أو من يسمونهم بالغوغاء فى لغة الفلاسفة الذين يبيعون النظريات للحكومات الضعيفة التى ليس لها سند شعبى وغير محبوبة من الناس لكثرة ما تسرقه منهم وتتبرع به للاغراب ماذا يعرف هو من السياسة؟ لا شئ.. يقرأ فى كتب الادب والفن وهذه تتجنب السياسة والحكام لأنها لا تقبل المزايدة على سبيلها النظيف.

وحين وجد أن النوم يعانده.. والقوم شبعوا من الطعام وذهبوا.. قرر أن يتوجه إلى مقر الجريدة يستطلع اخبار الدنيا والزمان.. التقى صديقه سليمان الذى وجده منهمكاً فى حديث هاتفى مع إحدى القارئات.

تبسم له واقتعد كرسياً بجانبه.. امر الحاجب بإحضار الشاى لضيفه ولم ينس أن يشعل سيجارة لنفسه حيث استأذن من الطرف الآخر لبعض الوقت بل استطاع أن يقول له:– كيف الحال.. اشتقنا لأخباركم.

غمغم مجيباً: الاخبار عندكم وليس لدينا منها شئ.

وضاع السؤال:– اين سلطان.. اين اختفى؟

وتخلص من حديث القارئة الثرثارة بأن قال:- عندى ضيوف فلنرجئ بقية الموضوع. ومن الواضح أن الطرف الآخر تضايق من هذه النهاية لأن سليمان رد.. إن شاء الله.. إن شاء الله.

التفت نحوه متسائلاً:- وكيف المسكن الجديد؟.. فقدناك في منزلنا.

- أعيش مثل كبار الناس.. تصور أنه توجد عندى عجوز تخدمني وترعاني..

تبتسم معلقا:- ومن أين اتيت بهذه المرأة يادون جوان؟

- هي التي تبرعت بالحضور.. ولا أعرف حتى ما هو اسمها.

- اخشى أن تكون قائمة بمهمة سرية.

- وماذا تريد من تعيس مثلي ، افلاس .. مستقبل مجهول.

- ربما تعمل لحساب جهة ثانية.

رد بسرعة: لا ثانية ولا ثالثة لا فائدة من أمثالنا من الضعفاء.

ودخل المكتب منور يبتسم كعادته والقى التحية عليهم ثم قال بسرعة :

- ماهذه التطورات في الجريدة .. أصبحتم جريئين فمن أين لكم بهذه الشجاعة.

قال له سليمان وهو يضع أصبعه على فمه : اسكت لايسمعك الدسم فيفصلني من العمل .

تساءل : هل لايدرى أو يعلم؟ .

- مضى عليه يومان لايعرف النوم من الخوف .. فاسكت حتى لاتزيد هواجسه.

-إذن فهو «ذروقي». فقال عامر : ابعد عن الشر وغنى له :

فعلق سليمان : الجريدة تتعرض للاخطار من كل مكان.

فتضاحك منور: يعني إذا زعلت منكم واشتكيتكم تحرجون وتخافون .

- حتى الطفل يقاضينا ونحترم رأيه .

- بئس العمل بهذا المستوى .

وهنا دخل الدسم عليهم وعلى وجهه آثار الارهاق فسلم وقعد وعيناه تومضان بتوجس .. فأراد منور تعزيته قائلا : يعني عملكم كله خطر في خطر.

فتنهد الدسم مجيبا : انتم تنامون الليل مرتاحين ونحن تتغشانا الكوابيس .

فقال عامر مشجعا : ولكنكم تمثلون الرأى العام .. يعنى الشعب كله .

فرفع الدسم يده باستهانة قائلا : الشعب اللاهى والمشغول فى لعب الورق.

فتدخل منور : مسئوليتكم أن تعلموه وتثقفوه وإلا فما فائدة الصحافة؟ .

فعلق عامر : إذا كانت لدى الشعب الرغبة وإلا لا فائدة من تحريك الحجر بدون خطة .

فعلق منور : بس يقولون إنكم تربحون أموالاً عظيمة كل شهر .

فرد الدسم بسرعة : الأرباح تأتى على حساب صحتنا وراحتنا .. ثم لاتنس أن الخطأ يعنى السجن أو التوقيف .

فتلفت منور حوله قائلا : الله يبعدنا عن السجن ترانى ما أعرفكم إذا صار لكم شىء أو زعلت الحكومة عليكم .

علق سليمان : أنت عينة من الشباب الجبان .

– أخاف لأن عندى بزران .

– واحنا ماعندنا نساء وأطفال أكثر منك .

ودخل عليهم فى ذلك الوقت الشيخ مسعود الكرولى بهيئته المهيبة وجسمه الضخم فنهضوا جميعا لاستقباله وكان أسبقهم الدسم الذى خف لملاقاته منذ دخوله وأخذ يربت على يديه محييا ومرحبا به .

صافح الزائر كافة الحضور وهو يردد .. لا إله إلا الله .. اللهم سترك

ثم اقتعد أول كرسى صادفه .. وزاحم سليمان النادل وهو يقدم له القهوة حيث سأله بصوت رطيب وقد انحنى عليه .

ماهى مرئيات سيادتكم فيما يحدث فى العالم العربى هذه الأيام؟

أجاب وهو يرتشف من فنجان القهوة : مركزى الرسمى لايبيح لى إعطاء أى تصريحات .. فعاجله سليمان بالسؤال الآخر : إنما قصدت رأيكم الشخصى حتى نستفيد منه كما أنه ليس للنشر .

اعتدل فى جلسته ليرد قائلا : مبدأ هذه البلاد منذ أسسها عبد العزيز احترام إرادة الغير وعدم التدخل لأن المثل يقول «أهل مكة أدرى بشعابها» وكما نعرف

الوحدة العربية هدف جميع من يحب هذه الأمة ويخشى عليها من الضياع لأن العدو الإسرائيلي ينتظر الفرصة للتوسع على حساب العرب ودول الغرب تساعده حتى يسرقوا ثرواتنا ويستعمرونا من جديد . إنما رأيي أن الوحدة الإسلامية أقوى فالدين الإسلامي الذى يجمعنا يوآخى بين جميع الجنسيات والألوان ثم أن المسلمين يشكلون نسبة كبيرة من العالم والمفروض أن نستغل هذه الكثرة كما فعل العدو الصهيونى الذى يتحدث باسم اليهود مهما كانت جنسياتهم الحالية .

وابتسم عندما توقف عند هذه العبارات معلقا : ايه .. الشباب مندفع ولاينظر الى خلفه وجوانبه إنما يردد الشعارات كما يسمعها لأنه فطرى لم تعركه الدنيا أو يشرب من الماء العكر.

علق سليمان:- يعنى المبدأ سليم ولكنا يحتاج إلى وضع الاسس القويمة.

تدخل الدسم:- لا تلح على شيخنا بأكثر مما قال.. والكلام مفهوم.. ثم زعق بصوت مرتفع وهو ينهض:-

- هات الشاى.. يا ولد .. بسرعة.

فعلق منور وهو يتضاحك:- نحن نخاف يا عم من غضب الحكومة.

فتبسم الشيخ ليجيب:- الذى يمشى فى طريقه.. لا يخاف من احد لأن الحكومة تحمى الناس ولا تروعهم.

فقال الدسم بسرعة:- أنا اشهد.. الحكومة ما تضر أحد ولا تروعه.. ولكن المخطئ يأخذ جزاءه.

ثم أخذ يجول ببصره بين الملتفين حوله متسائلاً:- اين الذى كتب اليوم واسمه السامعى؟

أجاب سليمان:- لم يأت بعد .. هل نرسل فى طلبه.

فرفع الشيخ يده مستنكراً:- لا .. لا حاجة إلى ذلك.. انما ابغى تلفونكم؟.

قال الدسم:- جاهز يا طويل العمر.. نقربه لكم أم تستعملونه وهو فى مكانه؟

فنهض قائلاً وهو يعانى من ثقل جسمه:- بل أذهب إليه.. ثم تقدم من مكان الهاتف واخذ يعالج الارقام بطريقة سريعة.. ولكن يقفل الهاتف ثم يعيد تدوير

الارقام عدة مرات حين استمع إلى الرنين من الجهة الأخرى فأدخل سماعة الهاتف بالقرب من أذنه قائلاً بصوت هامس:

– مازلت فى الجريدة.. وذاهب إلى القصر الآن من تلفن..؟ مفهوم.. مع السلامة.

وحين أقفل الهاتف نظر إلى الحضور مبتسماً ليقول:– اسمحوا لى بالانصراف.. لان لدى ارتباطاً.. فشكرا لكم على هذه المقابلة اللطيفة والجلسة الممتعة.

فاحتج الدسم: ولكن.. كنا نريد أن نسمع منكم التوجه الأكثر.

فرد وهو يتحرك:– فيكم البركة.. أنتم مثال العقل والاتزان.

(١٧)

بعد أن تنفس الصعداء تنبه الدسم إلى عامر ليقول له:- إن شاء الله المسكن اعجبكم.

أجاب: الحمد لله.. مريح.

- البارحة عزمت أن ازورك ولكن حين رأيت عندك نساء عدلت.

- ليس عندى سوى عجوز تخدمنى.

- والاخرى المرأة الصغيرة؟ ذات الشعر الطويل.

- لا أعرف من تكون.. ربما من نساء الجيران.

رد الاخر بتحد:- من أين لكم بالجيران وليس فى العمارة سواك أحرج عامر والتاث لسانه بعض الشىء ولكنه غمغم:- ربما تعرفها العجوز.

قال الدسم بعناد:- اعترف بأنك تزوجت ولا تريد أن يدرى أحد.

تدخل سليمان ليعلق:- مبروك عامر..أعرست.. فى السر.

رد بحسم:- لا تصدق هذا الكلام فأنا مسكين.. مازلت اعزب.

قال الدسم:- وهذه الرائحة الحلوة التى نشمها فيك.. لقد شممتها قرب شقتك أيضا.

نظر إلى ملابسه محتجاً:- انها من رائحة المغسلة.

فضحك سليمان:- رائحة المغسلة فيها عنبر.. اخبرنى اين هذه المغسلة لأتعامل معها.

- لا أعرف ..اسأل العجوز.

فتبسم الدسم:- يسأل العجوز أم الزوجة؟.

- صدقنى.. أنت واهم.. ولا أحد فى المنزل سوى العجوز.

فتدخل منور:- إذا كانت العجوز بهذه المواصفات فتوسط لى بواحدة مثلها.. تأتى بزوجة جميلة ذات رائحة زكية.

شعر عامر بالخجل من هذا الهجوم غير متوقع عليه فقال :

- أعزمكم عندى .. حتى تروا بأنفسكم.

فرد سليمان:- وهل ندخل على نسائك؟ لا يجوز.

وفى تلك الليلة دار حوار جديد بينه وبين زوجته:

- أتدرين أن ضيفنا تزوج حسب ما سمعت.

- كيف استطاع الزواج بهذه السرعة.

- لا أعلم.. انما يقال إن فى منزله امرأة جميلة ذات شعر طويل.

- هل تعتقد أن المرأة التى رأيتها هنا واقفلت عليها باب السطح هى تلك الزوجة.

- أرأيت شعرها الطويل.

- كانت متخفية بالعباءة انما اتذكر ضفيرتها.

- إذن هى بعينها.

- سخرت منى.. وقلت لى من تأثير التليفزيون على عقلى.

- سامحينى.. يا امرأة.. وابحثى لى عن واحدة مثلها.

سخرت منه قائلة:- حتى اقتلك واياها سوية خنقاً.

تحسس رقبته معلقا: يعلقونك بعد ذلك فى المشنقة.

تنهدت لتجيب:- الشنق اهون من أخذك منى.

- اتخمدى.. حتى أنام ياقاتلة.

غمغمت: بل مقتولة.. الرجال يقتلون النساء قبل أن يكبرن وهم يلحسون اطراف اصابعهن عند النوم.. انتم جنس متوحش.

- نامى.. حتى لا تذكريهم بالود فيدفنونى معك.

- أنا بريئة منك ياخائن.

- اذهبى إلى الجحيم.

- لن أذهب قبل أن اشرب من دمك الفاسد.

وجاء القط الاسود.. هر قليلا وهو يكشر عن انيابه.

فخافت المرأة منه وغطت وجهها ثم اغمضت عينيها.

وحين سمع زوجها انتظام تنفسها قام من سريره وراح يتجول فى سطح المنزل يبحث عن المرأة ذات الشعر الطويل.

وفى الصباح وجد نفسه ينام فى فراش الصبى على.. فلعن الشيطان.. ونهض ليؤدى صلاة الفجر.. ثم خرج مسرعاً من المنزل.. وكان أول من صادفه فى الزقاق ذلك الرجل المشوه.. كان لعابه مازال يسيل على صدره ومع ذلك تقدم ليقبله.. ابعده عن وجهه ولكنه اصر على تقبيله وكادا يقعان على الاراض وهما يتعاركان وفطن الكلب الضخم إلى ما يحدث فجاء مسرعاً لمساعدة صاحبه وتشبث بملابس سليمان واخذ يسحبها بقوة.. ووجد أنه يحارب فى جبهتين قويتين فاستسلم لقبلات شنقافة ودموعه تهطل على صدره.

وكان الرجل يلثمه ويتركه ثم يعود إلى لثمه من جديد.. اخرج من جيبه النقود واعطاها إلى شنقافة الذى ابتسم عند رؤيتها وركض بعيداً عنه وهو يرفع يده بالتحية كما أن الكلب انطلق فى أثره وذيله يتحرك ويرسم علامة الانتصار.

ركب عربته وهو يلعن ذلك اليوم البغيض، بل تلك الليلة البائسة التى تفخذ فيها من لا يعلم.

اشعل سيجارة وهو يقود عربته التى اخذت تتقافز فوق خط الاسفلت وكأنما تسير فوق تلال صغيرة وقد اكتشف أنه يسير فوق صناديق. الخضار والفاكهة والكراتين التى تملأ المكان فى تلك السوق والناس يصرخون محتجين وهو لا يسمع سوى ارتطام العجلات الهادرة فى ذلك الزحام. وحين بلغ مكتبه أخذ يشم رائحة كريهة فى ملابسه ـ وكان لعاب شنقافة ورائحة بول الكلب الذى رفع ذيله وقدمه قبل أن يتركه ـ يبقع ملابسه وتذكر الرائحة الزكية التى تنفثها ملابس صديقة عامر فقرر أن يقوم بزيارته فى الحال لولا أن الدسم دخل عليه المكتب وعيناه ملتصقتان فى جبهته وقد كشر عن أسنان بينها عظام وفصوص مستعارة فقال له بغضب مستشيط : هل تدرى انهم قرروا اقفال الجريدة لمدة اسبوع مع دفع غرامة مقدارها خمسة آلاف ريال؟

جحظت عينا سليمان عند سماع ذلك النبأ وامتص سيجارته بقوة من الجانب الآخر فألمته شفتاه ورمى السيجارة على الأرض وهو يصرخ.. فاقترب منه الدسم واحتضنه مواسيا وهو يقول :

- بسيطة يا أستاذ .. لا تزعل نحن نتقاسم السراء والضراء.. والصحافة همومها لا تحصى.

وكان سليمان يتلمس مكان الألم بين شفتيه ويلعن التدخين ومن اكتشف السجائر ..

ثم ابتسم وهو يردد في نفسه : هذه قبلة المرأة ذات الشعر الطويل. وقال الدسم هو يربت على كتفه :

- تعال نذهب الى أحد المطاعم لنفطر .. فأنا لم آكل شيئا حتى الآن .. وسار الى جانبه سليمان مستسلما ومازال يفكر بزيارة عامر فقال مقترحا :

- لماذا لا نذهب الى شقة صاحبنا عامر؟

فاعترض الدسم قائلا: لماذا نحرج المسكين؟ .. سوف نعرج عليه عند عودتنا من المطعم . ثم قال للنادل القهوجي : اجلس وراء الباب .. ولا تسمح لأحد بالدخول ومن يسألك قل له نحن اليوم في اجازة.. هل تفهم؟ فهز الرجل رأسه علامة الامتثال وان كانت نظراته توحي بعدم الفهم لهذا الامر الذي يحدث لأول مرة .

التقيا في أول الشارع بعامر الذي بدا مهموما محتارا يحرك يديه وكأنما يكلم أحدا. وعندما رآهما اقبل نحوهما قائلا مباشرة :

- يالربع ما تدرون وين راح زميلنا سلطان .. وين اختفى؟

أجاب الدسم : هو رجال ماهوب صغير تنشد عنه؟

- بس صدته عننا ماهيب عادته!

- الغايب حجته معه .

- هو كتب شيء بالجريدة هالايام؟.

رد سليمان : لا .. ابدا

– وجلسة ذلك المساء اللي حضرها ذلك العجوز وشقال فيها؟

فقال الدسم : ماغير قال كلام مزح ضحكوا منه الحاضرين.

فتدخل سليمان محوقلا بعينيه : لا .. الكرولي هز راسه عقب ماسمع كلام سلطان وقال هذا كلام الشيوعيين.

فوضع عامر يديه على رأسه قائلا بتهويل:

ـ قال هذا كلام الشيوعيين؟ اذن ما اخفاه غيره ابن هالحرام.

ـ تعوذ من الشيطان ولا تستعجل او تطرى شي ما انت متأكد منه.

فتحركت اقدامه خطوة وهو يردد : راح ضحية كلام للضحك المسكين.

فنهره الدسم قائلا باستنكار : يارجال لا تصير عجل وتسوى دعاية فتضر المسكين.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يردد : ياحبيبي ياسلطان.. خانك لسانك وضعت مع غيرك..

وراك ماسكت ورحت لغجريتك ووسعت صدرك معها .

(١٨)

تجمهر الناس عند مدخل الجريدة .. (بضعة شباب) وقفوا يسدون الشوارع وهم يحلون لافتات كتب عليها (الفجر الجديد) .. تحدث بعضهم فقال انهم طلاب الجامعة اضربوا عن المحاضرات هذا اليوم احتجاجا على اقفال الجريدة . كان العدد يزداد كلما مر الوقت. الدسم وسليمان وقفا قرب الباب المقفل لا يدريان ماذا يفعلان. جاء رجل من وسط الناس وتساءل اين اصحاب الجريدة فلما عرفهما تقدم منهما قائلا :

على أحدكم أن يلقى كلمة فيهم حتى ينصرفوا والا فان بقاء مثل هذا العدد سوف يجلب لهم كارثة محققة لا يعلم مداها الا الله.. سليمان دفع الدسم قائلا له:

ـ هيا تكلم قبل ان يبلغ السيل مداه .

نظر اليه الدسم ووجهه اصفر بلون الكركم مستجيرا به فنصحه قائلا :

ـ قل لهم السلام عليكم .

فخرج صوته مبحوحا حتى لم يسمعه سوى القريب منه.. لكزه سليمان قائلا: استمر.. ألم تكن تسمع خطب الزعماء كل يوم.. اعتبر نفسك زعيما وتكلم بطلاقة.. وفجأة نبع من وسط الحضور الكرولى الذى استمر فى السير وهو يرفع عصا غليظة في يده حتى وصل الى مكان الرجلين فوقف بينهما وصاح بصوت جهورى :

ـ لقد امر مولاى بأن تعود الجريدة الى الصدور ثم أمسك بالرجلين من أعلى ثيابهما ورفعهما بيديه القويتين كأنهما أرنبان مقيدان وأراهما للحضور قائلا : هذا صاحب الجريدة ورئيس التحرير يسمعان التعليمات.

وصفق الحضور بفرح وارتياح وبدأوا فى الانصراف بينما انهمك الرجلان فى اعادة ثيابهما التى تمزق أعلاها حتى يستران صدريهما الحاسرين بعد ان

تقطعت ازرارهما وقد بدا عليهما التذمر والغضب واسرع عامر الى شقته فاحضر ثوبين تفوح منهما رائحة المسك والعنبر والقاها على صديقيه حتى يستران صدريهما الضامرين ويكف الناس عن الضحك عليهما. ودفع الدسم النادل القهوجي من طريقه ودلف الى داخل المبنى وكذلك فعل سليمان . وحين اندفع بعض الناس خلفهما.. قال له الدسم مستشيطاً.. ماذا قلت لك؟.. ثم فطن الى دخول الكرولى فاعتذر وتنحى له عن الطريق قائلا .. عفوا .. تفضلوا .. اهلا وسهلا ..

ومضى الى ركن حتى يغير ثوبه وكذلك فعل الآخر وهما ينتزعان ابتسامة بلهاء نحو الحضور التى تسربت من التجمع وجاءت للتهنئة بهذا العطف الكبير من صاحب الأمر الذى لا ينام من التفكير فى مصالح العباد ، وكان النادل اكثر الناس تذمرا من وقفته الصنمية فالتعليمات التى تلقاها تعطيه صلاحيه منع الدخول وأصحاب الدار عرايا يغيرون ثيابهم امام الممنوعين من الدخول فماذا يعمل سوى ان يتحول الى جدار صغير يستطيع ان يقفزه كل طفل أو متطفل .. وعامر يدور حول نفسه يتساءل بحسرة عن زميله سلطان هل هو مدسوس بين الجدران الصماء أم طليق فى الصحراء الجرداء يبحث عن فتاة تختبىء تحت الأرض وبين أكوام القبور وتتحول من حيوان الى آخر حسب ما تؤمر به لا حول لها ولا قوة لأن الغجر مفتاح القهر لأهل السياسة والمكر يطوفون الدنيا – وخاصة الصحارى ولا أحد يعرف لهم منبتا ولا مربطا ولا يستطيع أن يمنعهم من أكل الثعابين والحصرم ويتناسلون بهدوء ولا يعرفون المدينة أو البندر، عشقهم للمرح والحرية أذاب أمامهم جميع العقبات فجعل الأرض جميعها مفتوحة لهم وبسلام يدخلون ويخرجون من الممالك والاقطار وحتى من تحت الأرض .

سليمان ارتاح بهذا الثوب العابق بالروائح المبهجة خاصة بعد أن تخلص من ثوبه المتعفن برائحة اللعاب والبول الكريه الذى لن يستطيع به تأدية الصلاة رغم انه لا يعرف من نام الى جانبه فى الليلة الماضية وجعل ملابسه الداخلية مبلولة بينما الدسم مازال يبحث فى ذهنه عن الكلمات المناسبة التى يقولها للحضور الذى تراص امام جريدته حتى يضغط على السلطات بالسماح لها بالصدور ..

تمنى لو وجد من يدبج له خطابا كما يفعل الكثير من الزعماء الذين لهم من الاعوان من يستطيع أن يسد النقص فى شخصياتهم ومواقفهم.. عامر الوحيد الذى استمر على حالته من الحيرة والتشتت فهو ما انفك يسأل نفسه ذات السؤال فلا يخرج بأى جواب يقنعه عن سبب اختفاء صديقه سلطان ذلك الشاب الذى أمضى معه اياما فى الصحراء وشاهدا خلاله مشعلى الحرائق من الجن يصطلون بالنار التى خلقوا منها يرقصون فى نهاية الاحتفال وبينهم رجال من الانس ولكن بدون نساء.. فهل الجن رجال فقط؟ ولكن كيف يتكاثرون اذن ويتناسلون.. امثل الذباب؟ واحس بالدوار يخترق جبهته.. يالحياة الغجر من قاسية وماتعة، أجسادهم الرياضية رشيقة لأنهم لا يعرفون الاستقرار فى مكان واحد بل يمترون الصحراء طوال حياتهم.. ونساؤهم الرشيقات أجسادهن لدنة ناعمة.. ألوانها خمرية من الخارج بيضاء من داخل الثياب التى لايطالها لفح الشمس .

انهم الشعب المختار الذى لا يعرف الراحة.. ولكنهم فى الليالى القمرية يستمتعون بأزهى الليالى وأمتعها يسامرون النجوم طوال ليلهم حتى ان الحيوانات المفترسة أصبحت لا ترهبهم أو تؤذيهم انما تكون قريبة منهم وكأنما لتحرسهم من أعداء غير منظورين .

اكتظ مكتب الجريدة ذلك المساء بنخبة من الناس تدخل اليه لأول مرة وهى منفعلة سعيدة تتحدث بطريقة سريعة لتعبر عن امتنانها لهذا الحضور الذى يحدث لأول مرة فى هذه المدينة والذى يذكر - كما يقول الرواة - بحشود العمال فى الظهران حين استقبلهم الحاكم وطمأنهم الى وقوفه بجانبهم فى مطالبهم العادلة لرفع الاجور وتحسين أوضاعهم مما جعل الحشود تهتف له محيية.

وهكذا تدخل العاطفة دائما فى تصرفاتنا وامورنا الصغيرة والكبيرة وهى من عادات الشعوب الفطرية التى لا تحمل ضغينة أو كرها لأحد انما ترى الحياة ساحة خضراء مفعمة بالفرص للسماحة والحب والعطاء بلا حدود. وقد دارت كؤوس الشاى وفناجين القهوة بدون حساب على صدى الضحكات والتحيات التى توزع بين الجميع والتى كانت فرصة ان يلتقى الأحبة والاصدقاء بعد طول غياب

فى ذلك المكان المدفون بين الشوارع التى اقتضاها التنظيم الجديد حتى اقفلت الكثير من الازقة والطرق القديمة الضيقة التى عرفت بها المدن القديمة منذ العصور السابقة .

عاد عامر الى شقته واهن القوى متعكر المزاج لأنه لم يلتق بصديقه الاثير سلطان الذى توقع أن يراه من بين هذه الوجوه التى حضرت من أماكن بعيدة .

تمدد على أحد المقاعد ووضع رأسه المتعب على مسند يحده الجدار كتعبير عن الانهاك وضيق الصدر. ولكن العجوز نشطت منذ دخوله فازدحم المطبخ بالدخان وفاحت رائحة الزيوت واللحم والشواء بينما تصدر أصوات الأوانى التى تصطخب داخلها الملاعق الكبيرة والسكاكين .. كما أن أدوات الشاى ترن هى الأخرى بأصوات مميزة عندما تتصادم الفناجين وتتمايل فى الصحن الخاص مع ابريق الشاى .

وقد اعتقد بأنه سيغفو بعض الوقت لولا أن المرأة النشيطة أسرعت بفرش «السماط» بالقرب من مجلسه وبدأت فى نقل الصحون تباعا ، ولم تنس احضار مجموعة من الفاكهة المنوعة التى لم يذقها منذ بضع سنوات حتى انه تساءل من أين لهذه المرأة بكل هذه الأشياء والاصناف .. من يأتى لها بها ؟

قال .. بسم الله الرحمن الرحيم .. وبدأ فى تناول ماحوته السفرة متنقلا بأصابعه بين الصحون والأطباق الجميلة والجديدة . وكانت المرأة تقف بعيدا عنه لترى ما الذى يستهويه اكثر من هذه الأطعمة. وكانت بالتأكيد سعيدة وهى تراه منكبا على السفرة يختار من هذا الطبق أو ذاك حتى شعر بالشبع.. فحمد الله ونفض يديه ثم نهض للاغتسال.. تابعته بنظرها حتى تقدم له زجاجة عطر يتطيب بها عقب الطعام فشكرها وعاد يقعد بجانب ادوات الشاى. ولكنه لم يكد يحتسى كأسا من الشاى حتى أحس بالارتواء فعاد يتمدد بجسده المنهك.

ولكنه نهض فجأة الى المشجب حتى يغير ملابسه وكأنما خشى بأن المرأة سوف تنهضه ان لم يفعل وتغير ملابسه شأنها مع الأطفال. وعقب ذلك رأى أن يتمدد على سريره المريح رغم انه لم يشعر بالحاجة الى النوم.. انما ارتخاء

اعضائه والتخدر الذى ران على جسده عقب تناول الطعام جعلاه اقرب الى الكسل الجسدى وربما الذهنى ايضا. والغريب انه استسلم لإغفاءة ليست طويلة لأن حركة المرأة فى المطبخ لم تكف حتى ذلك الحين وواصل سباته حتى شعر بالسكون فى المنزل فأدرك أن العجوز ذهبت الى فراشها . فجلس فى سريره وهو يفكر بحوادث ذلك اليوم مستغربا من الذى دفع تلك الحشود الى الحضور.. هل أن للجريدة ذلك التأثير؟ أم أنها استوعبت الرسالة من خلف الحدود؟. فتمتم: نحن شعب واحد من المحيط الى الخليج فما الغريب فى التأثير والتأثر. ونهض بعد ذلك واخذ يتمشى فى الغرفة الكبيرة وطرأ له أن يرى الغرف الصغيرة فى منزله فاكتشف ان امرأة صبية تتمدد على السرير فى الغرفة الجانبية كانت ترتدى غلالة رقيقة لونها وردى بينما شعرها الطويل ينساب مابين ظهرها والوسادة التى تنام عليها ثم اكتشف ماوقف له شعر رأسه.. فلقد رأى ثعبانا ضخما متمددا الى جانب الفتاة. واحتار ماذا يفعل ثم من تكون هذه الكاعب الغريبة. جلس عند باب الغرفة واخذ يحملق فى هذا المشهد. الثعبان لا يتحرك من مكانه بينما الفتاة تتقلب على فراشها بل انها وضعت يدها على الثعبان فارتعد فى مكانه وتوقع بأن الثعبان سوف يفعل شيئا مخيفا.. لولا انه رآها تربت عليه ثم شعرت بوجوده - لايدرى كيف - فاعتدلت فى فراشها قائلة له بصوت ناعم وهى تمسح عينيها وتبتسم بتشجيع :

- أترغب النوم فى هذه الغرفة ؟

بينما رأى الثعبان يتلوى وكأنما يريد أن ينكمش

فقال بسرعة وبلسان متعثر :

- من تكونين .. وماهذا الثعبان؟

- أنا ضيفتك .. وهذا حارسى. فلا تجزع منه .. انه عاشقى .. ولا ينام الا بجانبى .. فان ابتعدت عنه بقى مستيقظا .

(١٩)

انسحب الى غرفته وعاد يتمدد على السرير وهو يفكر بهذه الافعى الرهيبة والفتاة التي احتضنتها واخذت تقبلها وكأنما هو حبيبها فعلا .. من تكون ومن اين جاءت والعجوز النشيطة اين مضت؟ هل هي في غرفة أخرى غادرت وحلت هذه مكانها .. وتذكر قولها له انني لك بمثابة الزوجة فماذا يعني هذا التلميح؟ انه يعيش في اجواء لم تخطر له على بال فماذا تراه فاعل؟ هل يذهب الى الفقهاء يسألهم تفسيرا؟ أم السحرة وقراء الغيب حتى يفكوا له هذه الرموز المستعصية على الفهم والتفكير؟ سمع تمتمات غريبة تصدر من الغرفة التي تنام فيها الفتاة فقفز الى عتبة الغرفة حتى يستطلع جلية الامر حيث وجد الفتاة نائمة بينما الافعى تحاول ان تنطوي فوق جسدها ورأسها تتلمظ بمحاذاة وجهها. هم بأن ينتزع جسد الافعي ولكنه تراجع خوفا من لسعتها وتجول في شقته يبحث عن اداة حادة يقاوم بها ذلك الحيوان البغيض وحين امسك بسكين كبيرة تشبه (الساطور) تنبه الى ان الفتاة تقف خلفه بملابسها المثيرة وبين يديها ثعبانها المخيف.. كانت الفتاة ذات بشرة بيضاء وشعرها الحريري يتناثر فوق عجيزتها.. صدرها ناهد يكاد يمزق الغلالة التي ترتديها .. انفها صغير وكذلك فمها الذي يشي لونه بوضع مكياج طبيعي وجسدها المشوق يلفت النظر فيها ردفان مشدودان وسيقان ملفوفة بينما اقدامها الصغيرة الحافية تلتمع بالبياض ، وثمة غمازة في وسط ذقنها واقراط ذهبية مطعمة وموشاة اطرافها بالجواهر تبرق مثل اسنانها اللؤلؤية البيضاء المنضودة بعناية. حين امعن النظر اليها تنهد بقوة فابتسمت له بدلال وهي تطوح بثعبانها قائلة :

.هل يضايقك مرآه ! فهز رأسه بنفور بينما نظراته تائهة بين الصدر والردفين والبطن الصغيرة والخصر النحيل.. من أين أنت يا فاتنة؟

ـ فتاة من البادية ..

ـ أية بادية ؟

ـ بادية الدنيا كلها .. نحن نعرف الصحراء فى كل مكان.

ـ وهذا الثعبان .. ما شأنه؟

ـ انه يعشقنى منذ عدة اعوام.

ـ هل تزوجك؟

ـ هذا مايرغب فيه .. ولكن اهلى يعارضون.

ـ كيف تعرفت عليه؟!

ـ انها قصة طويلة سوف تحكيها لك شهرزاد.. انما عاهدنى بأنك لن تتعرض لهذا الدأب بشر حتى استريح معك.. ان هذا من مصلحتك .. فأنت تستطيع ان تجرحه ولكنك لن تقتله.. انه يفتك بأضخم الأجساد .. لا تحسبه ضعيفا.. هذا الاشقر النحيف.

– انه ضخم .. وليس نحيفا !.

– سوف اسمح له بالذهاب حتى ينام .. وادنت وجها منه وأخذت تتمتم ببعض الكلمات المبهة.. ثم وضعته على الارض فاذا به يركض سريعا نحو الغرفة .

قالت له تعال بنا نجلس على الارض فحديث شهرزاد سوف يطول مع امتداد الليل .

تسربا الى الحشية الارضية وهما يمسكان بأيدى بعضهما ولم يكن ينقصهما سوى الانطلاق فى اجواز الفضاء كمثال للعشق الذى لا يعرف المستحيل بعد ان احتكت بجسمه قليلا ابتعدت واطلقت العنان لذكرياتها .

ـ كنت أقوم برعى الاغنام.. وحين اشعر بالتعب اتوجه الى اقرب غار حتى انام بعض الوقت لأعاود التجوال وراء العشب مع اغنامى وفى كل مرة أجده أمامى.. هذا الدأب الأشقر.. فبمجرد أن يرانى يأتى نحوى ويقبل اقدامى ويوصوص ببعض التعابير التى لم أكن اعرفها مما اضطرنى ان اتعلم لغته ..

قاطعها قائلا : يقال ان الدأب يحرس الكنز .. فأى كنز يحرسه هذا الدأب العاشق؟

أشارت الى صدرها قائلة : هنا الكنز الذى يحبه.

وواصلت: المعروف ان الكثير من الغدران متصلة بآبار عميقة وأحيانا مع بحور ولهذا يكون هواؤها رطبا فكان يذهب ويحضر لي ماء باردا ويساعدني في تطبيب الاغنام ان وجد بينها متعبة او حامل أو مرضع.. ثم اخذ يقبلني في غفلة مني حين يراني نائمة .. قبل ان يصارحني بحبه واعتزامه الدفاع عني حتى آخر يوم في حياتي.. وهكذا ارتبطت روحي به منذ ذلك الحين لا نفترق طويلا .. وقد أخذني الى عالم ما تحت الارض وأمضينا هناك أياماً جميلة ممتعة .. فأهل الأرض الباطنية يحبون المرح والانطلاق وخاصة الرقص والغناء ونحن كذلك .. ولهذا ربطت بيننا صداقة عميقة .. ومنذ رأيناك انا وهو عندما حضرت الى المخيم قررنا ان تكون زميلنا الثالث ولهذا السبب لاحقناك دون ان تدري .. هل تتذكر الطير الذي وقف ينظر لك وصديقك عند الغروب.. انه هو .. ثم اصبح يأتيك على هيئة قط اسود في ذلك المنزل.. واخير خسف بذلك القبر حتى لا تراه وكنت انا على هيئة عنزة صغيرة .

قاطعها : كنت عنزة جميلة .

أضافت : كنا نتابعك منذ ذلك الحين.. حتى استقر بك المقام هنا .. ثم ضغطت على يده قائلة :

وهنا نحن الثلاثة تحت سقف واحد.. وهو ما تمنيت حدوثه منذ احببناك .. وان كنا نحن اهل البادية لا نشعر بالارتياح في مثل هذه الاماكن المغلقة بالاسمنت والطابوق. ولكن ماذا نفعل سوى ان ننتظرك حتى تعود معنا الى البراري وترتاح من هذه الحياة المعقدة .

- ولماذا اذهب معكما ؟

- حتى تعيش الحياة السرمدية .. هربا من هذه المؤقتة.

- عليّ أن أفكر كثيرا قبل أن اقرر.

- نحن لسنا على عجلة من أمرنا معك.. انما لن نتركك بمفردك طالما ذاك الشاب يلاحقك بأفكاره الشاذة .

- من تقصدين ؟

- سلطان ..

- ولكن .. هل تعرفين أين هو الآن؟

ـ طبعا اعرف .. ولكن لا أريد أن أتذكره فيحضر الى هنا .. انما عليه ان يذهب الى ابن عمى شنقافة فهو يعرف ما يريده صديقك بالضبط .

ـ لا افهم.. ماتقولين جيدا .

ـ لا تتعب رأسك فأنت معنا وهذا يكفى ياحبيبى.

فسألها هل قلت ان ذلك الرجل القبيح شنقافة ابن عمك.. هزت رأسها علامة الايجاب.. واضافت حين يعود الى طبيعته يصبح أجمل وأحلى من أبناء أهل الأرض فهو وسيم وزوجته الكلبة الضخمة تغار عليه ولا تغفل عيناها عن حراسته. انه ابن امير من امراء اهل باطن الارض وليس مثل رجالكم .. هؤلاء المغرورين بنقودهم الزائفة .

اشار اليها قائلا بتحيز : لا ترفعى صوتك فيسمعنا الاعداء ..

فضحكت معلقة : لا تخف .. فأنت فى حمايتنا منذ ذلك الحين ولن يستطيع أحد أن يطالك بسوء .

فتنهد قائلا : هل افهم من هذا انه لم يعد لى رأى

فتبسمت مشجعة : بل نحن من ورائك ورهن اشارتك يا اعز المخلوقات لدينا .

فتمطى فى مكانه قائلا : لم احصل على هذا الاعزاز فى حياتى .. فياليت امى تعرف ..

ردت مسرعة : سوف نحضرها لك متى أردت.

فنهض وهو يقول : كلا .. لا تزعجوها فى آخرتها .. وعلى أن ارتاح الآن .. فقد عانيت اليوم مافيه الكفاية.. امسك بها وشدها الى صدره حتى يضمها فاستسلمت به ولكنه حين اقترب من السرير تخلصت منه قائلة :

ـ لم يحن الوقت .. فاتركنى ..

وبينما هو فى هذه النشوة اذا ابصر الثعبان يقف فى مواجهته فشدته الفتاة اليها متمتمة فى اذنه بما لم يفهم ..

وسحبته معها الى الغرفة معلقة: ارأيت بمجرد ان سمع تذمرى .. تصور اننى فى مأزق فجاء لنجدتى ..

فطرح نفسه على سريره وهو يغطى وجهه بيده مجيبا : تصبحين على خير ياجميلتى .

فغرد صوتها : وانت من أهل الخير .

(٢٠)

تساءل بحيرة : هل يستطيع ابن البحر ان يعيش فى الصحراء؟ كان منذ صغره يجلس على حجر قبالة الشاطىء يرقب طيور النوارس وهى تتجول الشاطىء بحثا عن صيد داخل البحر.. وحين تجد ضالتها تنقض عليها برشاقة وسرعان ما تعود بها معلقة فى فمها حيث تزودها بتمهل وكأنما تتذوق طعمها قبل دفعها الى باطنها.. كان يحب امواج البحر التى تعلو مثل التلال الترابية قبل حدوث العاصفة فاذا ذهبت العاصفة وجد ان مكان التلال قد تغير وانتقلت الى مكان اخر.. كان الزبد الذى ينطلق فى قمة تلك الامواج يجعله يتذكر زبد الجمال حين تكون غاضبة وترغى فى مكان تجمعها وكأنما تحذر الرجال من مغبة غضبتها. الفتيان يقذفون بأنفسهم على اطراف الشواطىء لايبتعدون كثيرا عن اليابسة خوفا من تلك التلال المزبدة وهى تعلو وتهبط . الرجال يذهبون إلى داخل البحر منذ الفجر ولا يعودون إلا فى المساء وقد امتلأت سلالهم بما يجود به البحر من هذه المخلوقات التى يحبها سكان الشواطىء. ليس أروع من منظر البحر وقد انعكست عليه اشعة الشمس الغاربة بخيوطها الذهبية التى تمتد فى كل الاتجاهات حيث الغسق يبعث الدفء فى الأجساد التى تنتظر الليل حتى تلوذ من متاعبها النهارية.. وحين كبر وعرف قلبه حب ابنة جارهم التى لها جذور فارسية اخذ يرى فى تلك الاشعة حبيبته ذات الوجه المستدير والبسمة المشرقة.. بشرتها تزدان فى تلك الألوان الصافية.. فاذا به يحب الغسق من اجل ذلك الوجه الصبوح الذى تسكنه الألوان الشفافة.

كان اسمها (هناء) تلك الرشيقة الهيفاء ذات العينين السوداوين الواسعتين يراها من خلال مرصد فى منزلهم تميس بين الغرف لمساعدة والدتها فى شئون المنزل ، شعرها الناعم الطويل ينسدل على صدرها متطايرا مع دفقات الهواء فتبعده عن وجهها حتى يكشف عن صدر تتقافز فوقه ليمونتان ناضجتان .

كان يتابعها بنظراته التى تشف عن سغب لافح وهيام دافق فيحاول ان ينشى أبياتا لتكون صدى لما يعتمل فى نفسه .

- أيتها الغزالة النافرة .

- انت هبة من السماء.

- لتطوين الارض بخطواتك الشماء.

- تتابعين النجوم وانت اجمل منها .

- مبتسمة لهذا الذى تعب من النظر الى حالق.

- يريد وصالا لا يتوقف ..

- والا فهجرا يدمى قلبه الضعيف.

- انت المهاجرة وانا القعيد فى ارضك الخضراء .

- اسأل متى ترحل النجوم الى مداراتها .. حتى أفيق من حلمى وانتشى بسماع صوتك .

هو لا يكف عن استراق النظر وهى لا تتوقف عن الانسراب بين الغرف حاملة امتعة الى حيث تجلس امها التى تنظر اليها مبتسمة تتخيلها زوجة لقريب لها يهواها منذ الصغر ، وهى ترفض سماع صوته وشعرها الناعم يرتفع به عنق المهرة تحمل هودجا لأميرة قبطية عاشت فى ارض الكنانة وارادوا اختطافها حتى يسرقوا الجواهر نيابة عنها .. نظرت اليه من خلال الهودج تسأله كيف يفكر باحتضان قاهرة الجواهر وهى هبة لا تباع بالذهب لأن قلبها جوهرة لم تعرفها الارض مطلقا .

- يا أيتها الهبة الإلهية :

- كيف لى ان اسافر الى عالمك السحرى .. وانت تجوسين النجوم؟

فتغرد ضحكتها قائلة : لن أكون لأحد .. لأننى من عشيرة القمر.. ومن ارادنى فليتطاول حتى يقبض على نجمته فى اعالى الافق .. وحين يفيق من هذه الهمسات تكون الشمس قد أصلته بحرارتها فيذهب سريعا الى الظل حتى لا تهرب نجمته مرددا:

- ياهبة النيل .. انى استغيث من العطش .. والبحار الحلوة من حولى لا تطفىء ظمأى.. فبمن استجير سوى بصحرائى حتى اضمك الى قلبى.

لماذا تكف شهر زاد عن حديثها الماتع ولا تخشى سيف شهريار.. أليس لأنه غرق فى حبها .. وكذلك نحن جميعا نغرق فى حب كل شهرزاد او فينوس متى ما تمكن سلوكها من فرض ذلك الخيط الرفيع الذى غالبا ما نمعن فى شده حتى يلتف حول قلوبنا فلله در هذا المخلوق المرهف ذى الشعور الرقيق الذى نمتص منه رحيق حياتنا فنذرف له دموعنا الساخنة.

لم يكن يريد ان يفيق من حلم اليقظة الذى اعتاده لولا انه تراءى له بأن الغجرية هى هناء جارتهم الفارسية فى تلك المدينة الساحلية التى احبها قبل ان يعرف ماهو الحب.

هناء.. ياحبى المدفون منذ عشرين عاما فى الصحراء التى احلتيها الى واحة خضراء تقفين فى وسطها مثل شجرة شماء فى قمتها رأس ينسدل منه شعر حريرى يتموج مع النسيم ويتلون اثناء الغسق.. عبيرك فواح فى سماء المنازل التى تحيط بدارك الصغيرة، يتضوع فوحا فى دروب عشاق الليل الذين يزدرون النهار لأنه يغيب الاقمار والنجوم .. ما أروع الماضى حين يمطرنا بالغيث من عابق الذكريات ويبقى مثل الندى على اوراق الزهور يقبل الوجنات ويرطب الوجدان .. عصافير الحقل الفرحة بسموقك تتقافز تحت قدميك حتى تحس بالدفء والامان فى غمرة خلودك المهيب.

لن ابث احزانى فى هذه الوحدة المسكونة بمتناقضات الحياة.. العيون السوداء مثال للصفاء كصفحة البحر الهادئة قبل انتفاضة الموج.. التمس العزاء فى هذا الليل الذى يطوى صفحاته على عجل وكأنما ثمة ما يدعوه الى الرحيل رغم انه كل دنيانا نحن الغرباء. أتراها مازالت تنتظرنى حتى أهيىء لها عشاً يليق بها.. تقول لا اريد الزواج.. فلماذا يا هناء تطوين جناحيك فوق نيران الوجد بينما جسدك اللدن لا يحتمل مثل هذه المعاناة.. كم راقص قد أبلى فى تلك المساحات الصغيرة التى تنسكب عليها الاضواء الملونة ولكنك لا تلتفتين الى اى منهم انما

تمضين فى ترديد الايقاع بأقدامك الصغيرة واهداب عينيك تخفى الق النشوة الظافرة بهذه البهجة السعيدة حيث تنطلقين الى عوالم الضياء فوق السحاب وبين النجوم .

واحسب انى فى هذه الخميلة التى احاطتنى رغم ابراجها العالية اغترف ضياء حتى ارحل به نحو عالمك البعيد عنى .. ودنياك البهيجة..

وفجأة واجهه سؤال مريب : ترى من الأبقى .. الروح ام الجسد؟

ـ استدرج قراءاته السابقة وآراء بعض العباقرة والمفكرين (الجسد هو وعاء الروح.. يتدرج مع العمر منذ الولادة وحتى الممات ولكن الروح لا تخضع لهذا التدرج لأنها قبس من الله).

صفق جذلا لهذه المناظرة.. الجسد هو العزاء وعليه تجرى التجارب الهينة ، اما الروح ففى علياء السماوات مصدرها ومستقرها .. ومع انه لايخاف الارواح منذ ان ساومه الشيطان على روحه..

ذلك جسد هناء ابيض اللون صقيلا يلتمع وجهها المضىء من الانوار الكاشفة القبسية .. معجون دمها من ذهب الفراعنة قبل ان يواروه قبورهم الجاثمة بين الصخور فى تلك الاهرامات العجيبة.. كانوا يريدون الحياة على مدى الازمان.. بينما ارواحهم طفقت تهرب الى السماء السامقة كملاذ لها من ضجيج السلاح وحروب المختلفة عقيدة..

الجمال لا يبلى طالما الروح تتقمصه .

فجأة سمع باب الشقة يرتج ثم يلج منه صديقه سلطان يحمل سيفا طويلا فى يده .. قال له دون تحية :

ـ كيف تتجرأ على اختطاف عشيقتى؟

جاءت تركض حافية من الغرفة الصغيرة واحتمت بصدر حبيبها جاحظة العينين والرعب يجعلها ترتجف.

توسلت اليه قائلة : لا تدعه يأخذنى منك.. فلست اريده انما احبك انت منذ عشرين عاما ..

امسك سلطان بجسدها ودفعها امامه الى الباب قائلا : لن تفلتي من العقاب يا خائنة .

صدرت عنها صرخة قصيرة جعلت الثعبان ينتفض وينقض على سلطان.. التف حول قدميه حتى أوقعه ارضا.. فانفلتت منه الجميلة وعادت الى حبيبها بعد ان اغلقت الباب دون سلطان .

توسلت اليه قائلة :

- انا هناء .. هل نسيتني.

نفض رأسه وسيف سلطان في يده صارخا والفتاة تحتمي بصدره:

- كلا .. ولن يأخذك احد مني.. حتى ثعبانك العاشق.. لابد ان اقضي عليه في الحال .. ولن يفلت مني .

رفع السيف .. فصدرت بروق .. وامطرت السماء بينما الثعبان يطير مرفرف الجناحين ويلوذ بالظلام .

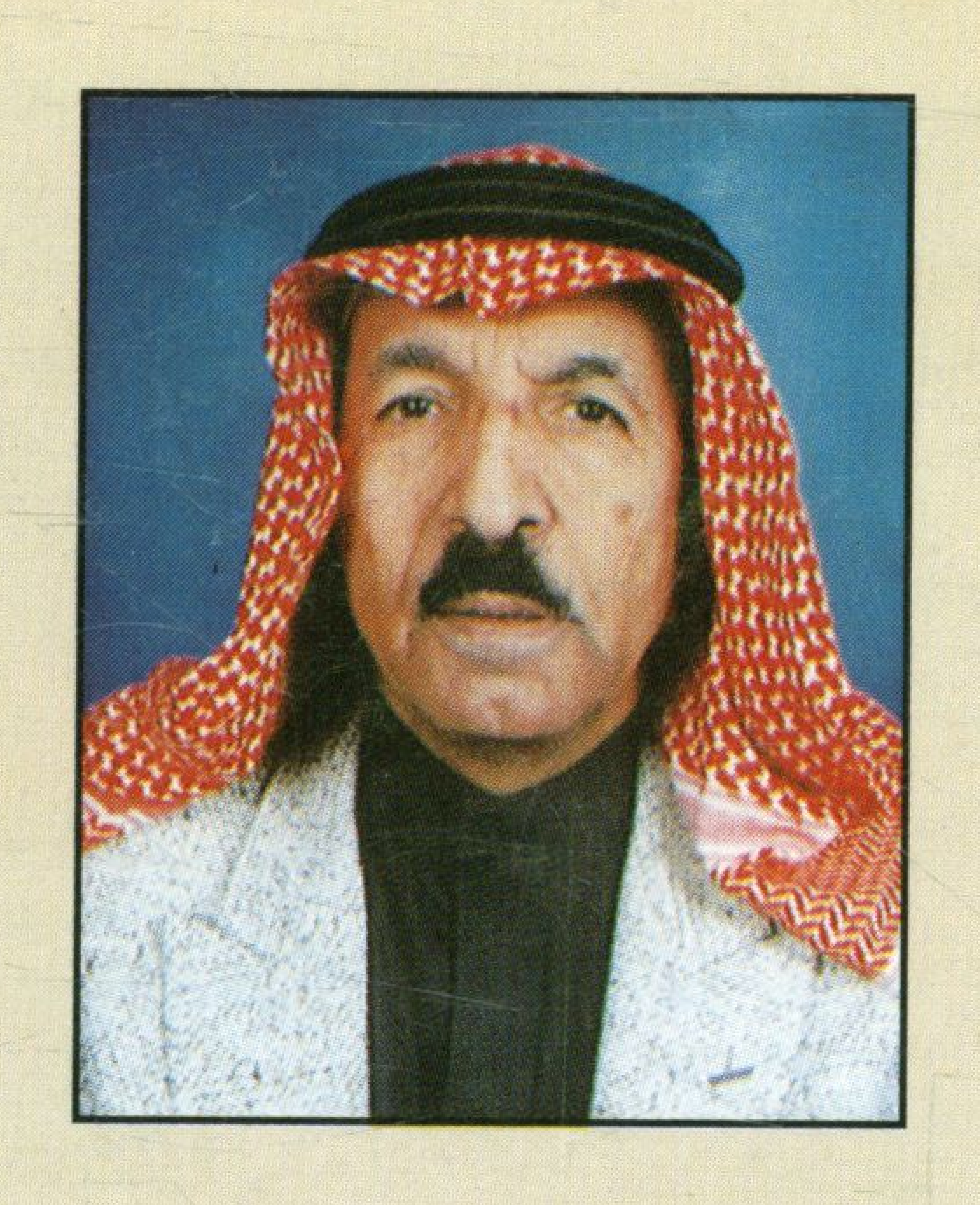
تمت بحمد الله ،،،

ابراهيم الناصر الحم
الرياض في ٢٥/١٠/
الموافق ١/٦/١٦

رقم الايداع : ١٨٨٩٤/ ٢٠٠٠

I.S.B.N

977-07-0748-1



هذه الرواية

هذه رواية متميزة لواحد من رواد القصة الحديثة فى المملكة العربية السعودية، منذ أكثر من نصف قرن ، وهو من مواليد الرياض عام ١٩٣٢ ميلادية.

يكتب الرواية والقصة القصيرة والمقال ، له العديد من الروايات منها «ثقب فى رداء الليل» ١٩٦١، «سفينة الموتى» ١٩٦٩، و«عذراء المنفى» ١٩٧٨، و«رعشة الظل» ١٩٩٤، و«دماء البراءة» ٢٠٠٠، وله العديد من المجموعات القصصية : «امهاتنا والنضال» ١٩٦٠ ... البنات» ١٩٧٧، «عيون القطط»، ١٩٩٤، وتعد رواية الغجرية و... اضافة متجددة للرواية العربية، لجرأتها، وحداثتها.

الثمن ٥ جنيهات

